546

٥٤٦

HARLEQUIN

عبير

دار النحاس

Nahas Publishing House

www.elromancia.com

مرمورية

زوج الامس

انجيلا ديفين

زوج الامس

انجيلا ديفين

«لديك الخيار، شركة ابيك مقابل عودتك إليّ.»

كانت ايما قد تركت زوجها منذ ثماني سنوات، ولكن ريتشارد فيلدينغ قد عاد الآن... يريد الانتقام.

لقد عاش والدها لأجل شركته، فقد كانت تعني له كل شيء... فكيف بامكانها ان تدع ريتشارد يدمرها ويدمر كل ما اوقف والدها حياتها لأجلها؟

لم يكن لديها خيار، عليها أن تدفع الثمن لريتشارد، حتى ولو كان هذا الثمن يعني أنه لن يكون في امكانها أن تعيش منسجمة مع نفسها مرة اخرى.

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - المغرب: ٨ درهم مغربي. - سلطنة عمان ١ ريال.

انجيلا ديفين

نشأت انجيلا ديفين في «تاسمانيا» محاطة بالغابات والجبال والبحر. ولهذا كرهت المدن الكبرى. قبل أن تتخذ الكتابة مهنة لها، اشتغلت بالتعليم، ثم في مكتبة وبعد ذلك محاضرة جامعية وحين كانت أماً شابة، وطالبة تدرس لنيل الدكتوراه في الفلسفة، أخذت تقرأ الروايات العاطفية للتسلية.

وأخيراً قررت أن التسلية ستكون أكثر لو أنها كتبتها بنفسها. متزوجة ولها أربعة أولاد، تعشق الشيكولاته، هواياتها العناية بالحديقة، السير في الغابات، السفر، الموسيقى الكلاسيكية.

٥٤٦

khouloub Abir 546

زوج الأمس

انجيلا ديفين

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

الفصل الأول

ما أن انطلقت حافلة الفندق في منطقة بالينيز الريفية المعشوشبة، حتى شعرت إيما بحنين كان من القوة بحيث أمسك أنفاسها. لقد كانت هذه الجزيرة الأندونيسية ما تزال غريبة أخاذة كعهدها بها عندما سبق وزارتها أثناء شهر عسلها. فأشجار النخيل تهتز أوراقها الخضراء الشبيهة بريش الطير، فوق الرؤوس. كذلك فتيات في تنانير وقمصان ملونة، يتمشين على جانبي الطرق وعلى رؤوسهن سلال الفاكهة. ومرة أرغم السائق على التوقف تماماً عندما انتشر في الطريق سرب من البط ملأ الجوّ بضوضائه. وعندما فتح باب الحافلة للاحتجاج لدى صاحب البط، اندفعت إلى الداخل موجة حارة من الهواء الاستوائي ملأت جو الحافلة المكيف الهواء مصطحبة معها عبير الجزيرة المؤلف من مزيج من نسائم البحر الرطبة وشذا أزهار التوابل الشرقية.

وإذ استنشقت إيما هذا العبير المميز، شعرت بشوق مؤلم نحو ريتشارد. وكان هذا الإحساس من القوة بحيث أغمضت عينيها لحظة قصيرة كادت تشعر معها، به جالساً بجانبها كعادته منذ تسع سنوات. وعندما عادت وفتحت عينيها، كان المقعد فارغاً وباب الحافلة مغلقاً. أمسكت إيما بحقيبة يدها وهي تجذب نفساً عميقاً مرتجفاً، محاولة السيطرة على ضربات قلبها المتصاعدة. وتساءلت بذعر، لماذا تراني

جئت؟ لا بد أنني كنت مجنونة. وهل أردت حقاً أن أجلب إلى نفسي مثل هذه الآلام؟ لشد ما كنت غبية، غبية. وأشاحت بوجهها عن النافذة ملقية بنظراتها على راكبي الحافلة. ولكن هذا لم يفلح سوى في زيادة شعورها بالضيق. كان أمامها زوجان في منتصف العمر أشيبا الشعر مشرقي الوجه بالابتسام، بدا عليهما وكأنهما بعد أربعين عاماً من زفافهما، ما زالا في شهر العسل، وخلفها كانت مجموعة من حديثي السن يتحدثون بانفعال وابتهاج، ما ينبىء بأنهم قد تعارفوا حديثاً. وأمامها مباشرة كان أكثر المشاهد إيلاماً على الإطلاق، عروسين من الواضح أنهما في شهر العسل، إذ كان ما زال عالقاً بشعر العروس البني الطويل قصاصات من ورق ملون، وهي تحدق في عريسها بسعادة غامرة. أما هو فلم يكن يرى سوى عيني عروسه البنيتين المتألقتين. وشعرت إيما إزاء هذا المشهد بمثل طعنة سكين في فؤادها. فهي لم تكن تكبرهما بالعمر كثيراً، إذ أنها ما زالت في الثامنة والعشرين، ولكنها شعرت بنفسها تكبرهما بمئات السنين بالنسبة لتجاربها المرة... تنهدت وهي تفتح كراسة السفر الملونة التي كانت تعبث بها شاردة الذهن، وحاولت قراءتها. لم يكن ثمة فائدة من الشكوى. فهي تحصد ما سبق وزرعته بيديها.

كانت هناك لحظة أخرى مؤلمة عندما وقفت الحافلة في فناء الفندق. فعندما تبعت حمال الأمتعة إلى الداخل حيث كان الجو بارداً، تناهى إلى مسامعها الحان الفرقة الموسيقية المحلية. تلك الموسيقى الغريبة التي تتعالى فيها دقات الصنوج وقرع الطبل. وشعرت بأنها أليفة لديها. نعم، لقد

كانت هناك فرقة موسيقية مثل هذه تماماً وذلك عندما وقعت هي وريتشارد باسميهما عند هذا المكتب بالذات وذلك منذ تسع سنوات. لقد كانت استعملت في ذلك الحين، اسمها بعد الزواج، وذلك بأصابع مهتزة، وها هي ذي الآن أصابعها تهتز مرة أخرى وهي تتناول القلم فيجيء توقيعها مضطرباً غير مقروء.

بدا الاسم غريباً لديها إذ أنها لم تكن تستعمله، وذلك أثناء الثماني سنوات التي انفصلت فيها عن ريتشارد، لأن دافعاً أحمق جعلها تبقيه في جواز سفرها. وهكذا كانت أثناء أسفارها، يتملكها الوهم في أنها متزوجة حقاً. كما أن نفس الدافع الأحمق منعها من أن تطلب الطلاق من ريتشارد، ومع أنها كانت تحدث نفسها في أنها تحتقره، فقد كان تصورها أحياناً أنهما قد يعودان إلى بعضهما البعض مرة أخرى، كان هذا التفكير يشعرها بنوع من الراحة الممزوجة بالألم. وضعت القلم. إن ذهاب ريتشارد إلى القمر أقرب منالاً إليه من أن تعود بينهما العلاقات. ولوت شفتيها لهذه الفكرة.

قال لها الموظف الجالس وراء المكتب: «لا تبدو السعادة عليك يا سيدتي. هل هنالك شيء؟»

فقالت تطمئنه بصوت مختنق: «كلا، كلا. ليس ثمة شيء مهم.»

لا شيء مهماً ما عدا أن زوجي يكرهني، وأنني على وشك إعلان افلاسي لعجز يبلغ العشرين مليون دولار. وأنني أشعر بتعاسة أتمنى معها لو لم أولد. وهكذا، لا شيء مهماً إطلاقاً. كانت تفكر في كل هذا عندما عاد الموظف يمنحها ابتسامة قائلاً: «إنك مسافرة بمفردك ولهذا تشعرين بالوحدة. أليس

www.elromancia.com

كذلك؟ اسمحي لي بتقديم اقتراح إليك. إننا نقيم حفلة كل ليلة... حفلة غير رسمية تعرض فولكلوراً محلياً، ما يجلب لضيوفنا سروراً كبيراً. وسيكون هناك شبان كثيرون. فهل تحبين أن أجلسك إلى مائدة تضم حولها سائحين يمكنك أن تتخذي منهم أصدقاء؟»

أجفلت. كان آخر شيء تريده، هو أن تجلس إلى مجموعة من الغرباء يجمع بينهم روح الإجازة. ولكن الموظف كان جاداً تماماً وبدا أنه يحاول صادقاً، مساعدتها ما جعلها تشعر بأنها مدينة له بإيضاح أسباب رفضها عرضه. فقالت كاذبة: «هذه شهامة تشكر عليها. ولكنني متعبة قليلاً من رحلة الطائرة، وعلى كل حال، ربما لن أبقى وحدي طويلاً. من المحتمل أن يصل زوجي فيما بعد، هذا المساء. فأنا أفضل البقاء في غرفتي في انتظاره.»

«طبعاً. طبعاً يا سيدتي. لقد فهمت الآن. وأنا سأترقب قدومه.»

مدت يدها تتناول منه المفتاح باسمة وهي تفكر في أنه سيمضي وقتاً طويلاً يترقبه. ولكن عندما جاء الغلام المستخدم ليحمل حقيبتها، وكان يرتدي الوزرة الوطنية وفوقها قميص مشرق الألوان، شعرت بروحها المعنوية ترتفع بشكل غير متوقع، وعندما تبعته في الممرات المتشعبة ابتدأ الاكتئاب الذي لازمها في الشهور الأخيرة، يتبدد من نفسها. ربما كانت فكرة حسنة تلك التي جعلتها تقوم بهذه الرحلة. وتملكتها صدمة وهي تتذكر أنها لم تقم بإجازة منذ تركت ريتشارد.

فتح الغلام باباً زجاجياً لينفذا إلى خارج المبنى، ثم

أشار إلى شرفة مظللة، ومرة أخرى شعرت بموجة من هواء المناطق الاستوائية الرطب الحار. كان حذاؤها ينزلق على الأرض المصقولة التي تحفها من الجانبين حديقة مليئة بأزهار الليلك الأرجواني والشجيرات الاستوائية القصيرة الكثيفة.

أشار الغلام إلى مبنى أمامهما مباشرة، قائلاً: «هناك، يا سيدتي. ذلك هو البيت الذي ستنزلين فيه.»

كان البيت الذي ستقيم فيه مؤلفاً من طابقين ومبنياً على الطراز المحلي التقليدي. بينما وضع في أنحاء الشرفة كراسي خيزرانية مغطاة بالوسائد. ووجدت نفسها تفكر على الفور في كوب كبير من عصير الفواكه المثلجة.

واستحثها الغلام باسماً: «أدخلي، أدخلي. المكان في الداخل بارد وجميل.»

كان فعلاً بارداً وجميلاً. كان مكيف الهواء يهدر بهدوء والغرفة التي وقع نظرها عليها مريحة حسنة التأثيث. وقد علقت على الجدران لوحات تمثل مناظر طبيعية ومشاهد أسطورية. كانت قطع الأثاث قليلة العدد، مكونة من أريكة مستطيلة مريحة ذات كسوة خضراء ومنضدتين صغيرتين وطقم من الكراسي الخيزرانية مع منضدة. ولكن خلف الستار الخشبي الرائع النقوش، أشار الغلام إلى وجود مطبخ صغير كامل المعدات. ثم صعد أمامها إلى الطابق العلوي.

وبعد أن أدخل الغلام كل أمتعتها، قالت محاولة الابتسام، إذ أن كل ما كانت تريده الآن هو أن تبقى وحدها، مع الذكريات، قالت: «أشكرك كثيراً.» وناولته ورقة

www.elromancia.com

مالية بخمسة آلاف روبية، هبة له، وأضافت: «اكون شاكرة لو أرسلت إليّ شيئاً من عصير الفاكهة المثلج.»

بعد أن تلاشى شكره لها وهو يبتعد، ثم يغلق الباب الخارجي خلفه بهدوء، تحرّرت هي من مظهرها المتكلف، فألقت حذاءها من قدميها وهي تتنهد بارتياح، ثم أخذت تفك شعرها المرفوع عالياً نازعة منه المشابك فينسدل حول كتفيها.

ثم فتحت حقيبة ملابسها بعد أن رفعتها إلى السرير، وأخذت تنقب فيها. وفي النهاية وجدت ما كانت تبحث عنه فأخرجته وألقت به على السرير. وبأصابع مرتجفة، خلعت بزتها الفرنسية الغالية الثمن، ثم عقد اللآلىء والقرطين المرصعين باللؤلؤ والذهب. ثم حملت الثوب الشرقي الطويل الذي كان ريتشارد قد ابتاعه لها في شهر العسل. كان ذا لون أزرق كامد، تنورة طويلة، وتطريز ملون أحمر على صدره. وفاحت منه رائحة الخشب المصنوع منه الصندوق الذي حفظت فيه هذا الثوب طوال السنوات الماضية. أمسكت بفرشاة الشعر وأخذت تمر بها على شعرها، ولكنها ما لبثت أن ألقت بها جانباً قبل الانتهاء من ذلك. وارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة ملتوية وهي تنظر إلى نفسها في المرآة، تخاطب صورتها فيها قائلة: إنك لم تتغيري كثيراً يا إيما.

ولكن نظرتها الساخرة، أنبأتها بأنها مخطئة. آه، إن ذلك صحيح من ناحية واحدة. فشعرها الأسود الطويل الذي ينسدل حول كتفيها، وجسدها الصغير الحجم ذو الشكل المراهق ما زالا يظهرانها، إلى حد كبير، تلك الفتاة الصغيرة

ذات التسعة عشر عاماً التي تزوجها ريتشارد. ومع هذا كانت من نواح أخرى، امرأة راشدة... امرأة ممتلئة حقداً. وطالعتها في المرآة عيناها الخضراوان، تبادلانها نظراتها اليقظة المعتادة. وبوجه عام، كان يبدو في جسمها الصغير المتناسق توتر مبهم.

هتفت: آه، تباً لكل هذا. لماذا جئت إلى هنا؟ كان عليّ أن أعلم أن ليس ثمة عودة إلى الماضي.

حدثت نفسها بأنها لن تعود إلى التفكير في ريتشارد بعد الآن. وأنها سترتاح فقط وستستمتع بأشعة الشمس وجمال الجو. وبعد ذلك سيكون بامكانها معالجة مشكلاتها بشكل أفضل.

تناهى الى سمعها صوت انغلاق الباب الخارجي في الطابق الأسفل. ربما هي الخادمة جاءتها بالوجبة الخفيفة التي كانت طلبتها. لا بأس، من الأفضل أن تبدو بمظهر لائق في حالة حضور الخادمة إلى غرفتها. أعادت تسريح شعرها لآخر مرة، ومن ثم فتحت الباب لكي تقف مذهولة وقد تملكتها صدمة.

قالت بصوت كالعويل: «ريتشارد.»

كان هو... هو بنفسه، وليس مجرد تصورات من خيالها كما سبقت وتخيلته أثناء ركوبها الحافلة. كان انساناً حقيقاً... بنفس ذلك الشعر الأشقر الجعد، ولون بشرته الذي لوحته الشمس، وعينيه الزرقاوين المتألقتين. ولكنه كان مختلفاً. نعم، كان مختلفاً تماماً. كان ما يزال رائع الجانبية، ولكن كان فيه نوع من الخشونة لم تكن في ريتشارد الشاب. كان يشع من شخصيته القوة وروح

السيطرة، وكأنه قد أعد نفسه لمواجهتها بكل ما يملك من قوة مدمّرة وكان مثل إيما، يرتدي نوعاً من الملابس غير المتكلفة كان يرتديه أثناء شهر عسلهما...

«مرحباً يا إيما.»

تشبثت بالباب تستند إليه لئلا تسقط على الأرض. وهمست تسأله بجمود: «ما الذي تفعله هنا؟»

لم يبد عليه أنه انزعج لهذا السؤال وكأنه لم يترك هذا المكان إلا منذ دقائق قليلة خرج فيها يستنشق الهواء الطلق. ورد عليها بحركة عابرة من يده، قائلاً بهدوء: «سأشرح لك الأمر بعد لحظة، إنما لماذا لا تأتين معي لنتناول شيئاً أثناء الحديث؟»

هبطت السلم خلفه وقد غاب شعورها بالواقع. هل من الممكن أن يكون هذا ما يحدث حقاً؟ كان هذا شيئاً بالغ الغرابة. ولكنها شعرت بالدرابزين الخشبي المزخرف شديد الصلابة تحت أصابعها، كما كان ابريق العصير المثلج المصحوب بطبق من الفاكهة الإستوائية اللذيذة يبدو حقيقياً تماماً. وغاصت بين وسائد إحد تلك الكراسي الخيزرانية وهي تتناول من يد ريتشارد كوب عصير وترفعه إلى شفتيها بأصابع واهية. وتدفق عصير الأناناس وجوز الهند الممزوج بالحليب والثلج في فمها بارداً منعشاً ما أعاد إلى نفسها شيئاً من الاطمئنان. كلا، إنها لا تحلم. وإنما كانت مضطربة المشاعر لرؤية زوجها بعد سنوات طويلة من الانفصال. ودارت في رأسها دوامة من الاسئلة كسحابة من الفراشات الملونة. لماذا، وكيف ومتى؟ ثم سألته دون تفكير: «كيف علمت بوجودي هنا؟»

فهز كتفيه باسماً وكأن أسهل شيء في العالم، هو العثور على إيما رغم أن مكانها كان من المفروض أن يكون سرياً تماماً. وحمل كوبه ثم استقر في كرسيه الخيزراني بكل راحة.

قال: «أخبرتني بذلك الآنسة ماتي.»

فرددت كلامه ساخطة: «الآنسة ماتي؟ هل استدرجت ماتي للبوح لك بهذه المعلومات؟ لا استطيع تصديق ذلك. فقد كانت دوماً سكرتيرة ممتازة كتوم. وقد أخبرتها بعدم رغبتي في أن يعرف مكاني أحد.»

أطلق ضحكة قصيرة قاسية ورفع كوبه نحوها محيياً: «حسناً، ربما تراها فكرت في أن زوجك ينبغي له معاملة خاصة. هذا إلى أنني أخبرتها بأن لديّ عرضاً لك لا بد أن أقدمه اليك حالاً.» وكان صوته وهو يقول ذلك، قاسياً كالفولاذ.

فهتفت منزعجة: «عرض؟ أي نوع من العروض هذا؟ وماذا تعني بذلك؟»

رد عليها ببطء وتكاسل: «لا تكوني متسرعة، يا إيما. إن هنالك الكثير علينا أن نقوم به قبل أن نتحدث عن هذا الأمر. لقد مرّ وقت طويل منذ رأى الواحد منا الآخر لآخر مرة.»

وفكرت إيما في أن هذا صحيح. ووضعت كوبها بيد مرتجفة. لقد شعرت، للحظة مجنونة، ببهجة مفاجئة لرؤية ريتشارد، ولكنها تدرك الآن كم كان شعورها ذاك مخطئاً. لم يكن في وجهه الساهم الذي يواجهها عبر المائدة أي أثر للمودة ما جعلها لا تشعر بأي رغبة في أن تعرف ما كان يقوم به منذ رأته آخر مرة.

ولكنها كانت دوماً على اطلاع على ذلك وقد ملأتها المرارة. فقد كانت المجلات، والصحف المالية لا تفتأ تقدم إليها كل التفاصيل عن وصوله السريع إلى الثراء والتألق، وكان ينتابها أحياناً شعور مؤلم بالندم إذ ما كان لها أبداً أن تبعده عنها وبالتالي لا يكون عليها أن تحتمل عذاب مراقبته وهو يعثر على الحب والنجاح من دونها. وكانت تتساءل، وهي تلوي شفتيها بجفاء، عما اذا كان ريتشارد يتابع نجاحها في مهنتها، وذلك في الصحف بنفس القدر الذي كانت هي تتابع عمله به. وقد أرتها كلماته التالية أنه كان يقوم بذلك فعلاً، إذ قال: «إنني لست من النفاق بحيث أدعي الأسف لسماعي بوفاة أبيك. ولكنني أرجو ألاّ يكون ذلك قد سبب لك ألماً كبيراً.»

مرّت على وجهها سحابة غائمة وهي تفكر في الأسابيع المليئة بالعذاب التي كانت أمضتها في المستشفى الخاص بجانب سرير أبيها. أسابيع شعرت فيها بأنها مستعدة لدفع أيّ ثمن في سبيل أن تشعر بلمسة مودة على كتفها من يد ريتشارد.

وردت عليه بصوت أبح: «لقد كان ذلك فعلاً.»

«إنني آسف، فسرطان الكبد هو مرض مخيف. ولكن عليّ أن أقرر حقيقة واقعة يا إيما، وهي انك قد أبديت شجاعة فائقة في تقبل الأمر. إنني أعلم انك كنت شديدة الولع بأبيك وأن رؤيتك له يموت أمامك شيئاً فشيئاً، لا بد كانت تعني الانهيار بالنسبة اليك. كذلك أعلم أنك أثبت جدارة محيرة في إدارتك شركة بريرو وأنت في الحادية والعشرين من عمرك فقط.»

شعرت إيما بالدهشة والسرور لهذا المديح غير المتوقع

منه لها، فاحمرت وجنتاها وتألقت عيناها وهي تقول متلعثمة: «أشكرك.»

تابع يقول وهو يمعن فيها النظر بدهاء: «وطبعاً لا بد أن الركود التجاري قد أصابك بنكسات موجعة كبيرة منذ ذلك الحين، ما جعل الأمور غير سهلة بالنسبة إلى أصحاب الأعمال وخصوصاً ذوي المكاتب الواقعة في وسط المنطقة التجارية. أخبريني عن كيفية سير أعمال الشركة الآن، في رأيك، يا إيما.»

انطلق هذا السؤال كرصاصة من بندقية أصابت إيما في القلب. وفكرت لحظة في أن تخبره بالحقيقة، ولكن كبرياءها منعتها من الإدلاء بهذا الاعتراف المذلّ، بالفشل. وبدلاً من ذلك، أجابت بابتسامة: «لم تكن الأمور سهلة. ولكنني اظن أن مسير الشركة، بالاجمال هو حسن جداً.»

وبحركة متمهلة، وضع ريتشارد كوبه ثم نهض واقفاً، ودار حول المنضدة، ثم مال إلى الأمام قائلاً وعلى وجهة ابتسامة غامضة: «إنك كذابة وقحة، يا حبيبتي.»

فدار رأسها شاعرة بالإهانة. ولم تتمكن من تحمل صدمة كلماته. فشحب وجهها وابتدأ قلبها يخفق بعنف. وحاولت مرتين ان تتكلم، ففشلت. واخيراً قالت بصوت اجش: «إنك تعلم إذن؟»

«نعم.»

فارتجفت شاعرة بألم هائل يتملكها، ثم هزت رأسها، كمن يتملكه الدوار، وهي ترمق ريتشارد بنظرة حزينة بينما كان يعود الى مقعده، وتسأله شاعرة بغصة في حلقها: «إذن، لا بد ان دنيا الاعمال جمعيها في سيدني، تعلم ذلك الان؟»

أجاب بصوت هادىء: «كلا. فأنت قد تكتمت امورك بشكل حسن، ولا بد لي من القول إنك قمت بمجهود شاق لإنقاذ الشركة. ولو لم يفشل مصرف ساوفورد التجاري لربما كنت نجحت في ذلك. أما الآن، فأنت على وشك الإفلاس، اليس كذلك؟»

إرتجفت مرة اخرى، وقالت: «نعم.»

قال: «سأوجه إليك سؤالاً لمجرد الفضول وهو، لماذا تأتين في هذه الإجازة المكلفة بينما انت على وشك الإفلاس؟ هل هنالك سبب معقول لذلك، ام ان الامر مجرد نزوة لفتاة غنية؟»

كان في هذا التعريف السيىء بها، ما جعل اعصاب ايما على حافة الانفجار. فقفزت واقفة تحدّق فيه بعينين ملتهبتين وهي تصرّ على اسنانها، ثم صرخت: «تباً لك. هل جئت الى هنا فقط لكي تهينني؟»

ودفعت بكرسيها بعيداً عنه، وما ان تحولت تود تركه، حتى قال: «لا تذهبي الان يا ايما. إنني لم انته من حديثي بعد.»

هبت فيه قائلة: «ولكنني أنا انتهيت منك. فانت لم ترني مرة قط انفق نقوداً، دون ان تتذمر وتشكو من ذلك. ولا اظنك تهتم فيما لو كان لدي سبب وجيه جعلني احضر الى هنا.»

رفع حاجبه قائلاً: «مثل ماذا؟»

كيف بإمكانها ان تخبره بالحقيقة؟ بأن السبب الحقيقي الذي جعلها تحضر الى هنا هو انه المكان الوحيد في العالم الذي شعرت فيه بالسعادة لكونها كانت معه. كان هذا اخر ما تودّ ان تعترف له به.

قالت: «لا اظن هذا من شؤونك. ولكن اذا كان يريحك ان

تعلم، فأنا اشعر فعلاً ان الالوف القليلة من الدولارات التي سأتكلفها هنا ليست سوى نقطة في بحر، بالنسبة الى الديون التي يتعينّ علي دفعها قريباً جداً. ولكن الواقع هو انني لم ادفع شيئاً في سبيل هذه الاجازة. حتى ان مجرد القيام بإجازة، لم تكن فكرتي انا. كانت هذه فكرة امي وهي التي دفعت النقود وليس انا.»

قال بدهشة: «امك؟ اتعنين انك ترينها هذه الايام؟ كنت اظن ان البابا العجوز الطيب قد منعك من ذلك؟»

«لا تتحدث عن ابي بمثل هذه الكراهية والسخرية. لقد كنت في الحادية والعشرين عندما توفي. اي امرأة راشدة. إنني اعلم انه لم يكن وامي على وفاق بعد الطلاق، ولكنني فكرت في ان عليّ ان اتصرف انطلاقاً من رأيي الخاص في ذلك.»

قال: «إنني مسرور لسماعي هذا. من المؤسف انك لم تعارضيه في امور اخرى، وإلا لما انتهت حياتك الى ما انتهت اليه الان. لقد كنت خاضعة له تماماً عندما عرفتك.»

فصرخت به. «كلا، لم اكن كذلك.»

«احقاً؟ لا تحاولي اقناعي بالعكس. في الواقع، لقد كنت افكر على الدوام بأنك لم تخدعيني مع نايجل ويلنغس، بينما انت ما زلت زوجتي إلا تنفيذاً لإرادة بابا العجوز الطيب.»

فسرت قشعريرة ذعر باردة في جسم ايما إزاء هذا التذكير القاسي منه بالماضي.

قالت بصوت خافت: «ايها الوقح. إنك تعلم جيداً ان الامر لم يحدث بهذا الشكل. إسمع اذا كنت لم تأت الى هنا الا لإهانتي، فأنت تضيّع وقتك. والان، هل لك ان تتفضل عليّ بأن ترحل من هنا؟»

قال بلطف: «كلا.»

قالت تهدده: «سأطلب من المسؤولين إلقاءك خارجاً.»

أطلق ضحكة ساخرة: «احقاً؟ هذا شيء ممتع حقاً. ما الذي ستقولينه للموظفين عندما تستدعينهم لطردي من المكان؟ وبعد، يا عزيزتي، فأنا زوجك، لقد كنت اخبرت بنفسك الموظف بأنك تنتظرين مجيئي هذه الليلة. فقد ذكر لي هذا عندما سألته عنك. الن يسبب هذا لك الاحراج؟»

ارتجفت وبقيت صامتة. لم يبد لها ذلك المشهد محرجاً فقط، وإنما غير معقول. ولكن قبل ان تنطق بكلمة اخرى، تابع هو قائلا بصوت ذي نعومة خطرة: «إذن، فإن لك صديقاً، اليس كذلك؟ حسناً، لا يمكنني ان اقول ان هذا يدهشني، حسب ما اعرفه عنك. ولكنني لن اقبل ان يتسلل اليك منتحلاً اسمي. من هو ذلك الرجل المحظوظ على اية حال؟»

صرخت: «لا احد. لقد قلت ذلك لأنهم عرضوا عليّ ان يجلسوني الى مائدة بعض السواح الاخرين. كنت اريد ان ابقى وحدي.»

ظهرت على شفتيه ابتسامة خطرة وتمتم يقول: «لقد سبق واخبرتك انك كذابة وقحة. واقولها الان مرة اخرى. إنني لا اصدقك.»

صرخت بصوت يرتجف غضباً: «لا يهمني ما الذي تصدقه، لان كل ما بيننا قد انتهى. اليس كذلك؟ فلماذا لا تخرج اذن؟ هيا، اخرج.»

قال وما زالت على شفتيه نفس الابتسامة: «اه، كلا. إنني لن اذهب قبل ان تسمعي ما سأعرضه عليك. اسمعي يا ايما، إذ ربما بإمكاني ان انقذك من الافلاس.»

«بإمكانك ماذا؟ ولكن لماذا؟ إنني دوماً كنت اظنك تكرهني.»

ضاقت عينا ريتشارد بدهاء، وقال: «ربما هذا صحيح، ولكن لدي اسبابي لذلك. وسأخبرك بها اثناء تناولنا العشاء هذه الليلة. وطبعاً هنالك شروط.»

قالت بصوت عالٍ يتملكه الخوف: «شروط؟ وأي نوع من الشروط تلك؟»

قال: «إنها شروط لا أظنها ستعجبك، ولكن لا بد منها لكي تعودي إلى الثراء والغنى، وربما تتذكرين البهجة التي تصاحب ذلك النوع من القوة، أليس كذلك يا زوجتي؟ والآن، متى تحبين تناول العشاء؟ اسمعي، ارتدي أجمل ثوب عندك وسأتصل بك في الساعة السابعة.»

بعد أن أغلق ريتشارد خلفه الباب بهدوء، غاصت إيما في أحد تلك الكراسي المنجدة وهي في حالة ذهول وعدم تصديق. غالباً ما كانت في الماضي، تراودها أحلام اليقظة عن عودة ريتشارد يطلب منها العودة إليه، وأن كل الجروح التي نشأت عن تجافيهما ستزول، وسيعود إليهما نفس ذلك الحب الذي كان بينهما عندما تقابلا لأول مرة. ولكنها لم يخطر لها قط من قبل أن عودتهما إلى بعضهما البعض، ستكون بهذا الشكل.

لقد كانت رؤيتها لريتشارد بهذا الشكل غير المتوقع، قد سببت لها صدمة لا حدود لها. بدا وكأن الجروح القديمة التي كانت تظنها شفيت، أو خمدت على الأقل، قد عادت تتفتح من جديد. لقد تملكها إحساس عنيف بالمذلة وهي تفكر في هذه المواجهة الجديدة بينهما ولم يكن لديها شك

www.elromancia.com

في أن ريتشارد مازال يكرهها. وكذلك ثمة شيء في التعبير الذي يبدو في عينيه يخبرها بأنه ما زال يحبها، وذلك بما لا يدع مجالاً لأي شك. تماماً كما تشعر هي تجاهه. لقد كان الذل يتملكها وهي ترى الاضطراب يسري في كيانها كلما نظرت إليه.

غطت وجهها براحتيها وهي تئن بصوت خافت، لماذا جاءت إلى هنا؟ لماذا؟ لماذا؟ لم تفهم شيئاً، ولماذا يريد هو أن ينقذ شركة بريرو من الوقوع في النكبة؟ فاذا كان يكرهها، أما كان من المعقول أن يدعها تغرق دون أن يمد إليها حبل النجاة؟ وما هو نوع العرض الذي يدور في ذهنه؟

لم تستطع الاجابة عن هذه الأسئلة، ولم ينتج التفكير فيها سوى الصداع ودافع عنيف إلى الانفجار في ثورة هستيرية. تمالكت نفسها وهي تجاهد لتقف على قدميها، لم يكن ثمة فائدة من كل هذا القلق الذي يسبب لها السقم، والأفضل لها أن تخرج قليلاً، ثم ترتدي أفضل ملابسها لتلقاه إلى مائدة العشاء وهي في شخصيتها المعتادة، إمرأة عاملة هادئة الأعصاب عنيدة الرأس كما أصبحت في السنوات القليلة الماضية.

وصل ريتشارد في الساعة السابعة بالضبط وقد بدا بارد الوسامة في سترة العشاء البيضاء الخفيفة، والبنطلون الأسود والقميص الأبيض. وكانت إيما قد ارتدت ثيابها بعناية، ليس لأن ريتشارد طلب منها ارتداء أجمل أثوابها، وإنما لأن شعورها بالجمال والتألق يرفع من روحها المعنوية وهو ما كانت في أشد الحاجة إليه، كان شعرها الأسود مرفوعاً، بينما كانت ترتدي ثوباً

طويلاً قرمزي اللون مطرزاً، وحول عنقها قلادة من الذهب واللؤلؤ.

عندما فتحت الباب لريتشارد، منحها انحناءة خفيفة ساخرة وهو يعلق على مظهرها قائلاً: «جذابة جداً.»

قالت باختصار: «شكراً، هل نذهب؟»

كان المطعم يقع في الطابق الخامس من نفس بناية الفندق ويشرف على البحر. تقدمت من خلف المكتب فتاة باسمة ترتدي زياً وطنياً قرمزياً، وسألتهما عن اسميهما. فقال ريتشارد ببساطة وكأنهما لم يفترقا طوال السنوات الثماني الماضية: «السيد والسيدة فيلدينغ.»

«تفضلا يا سيدي، من هنا.»

كانت الأنوار في المطعم خافتة لكي يبدو منظر البحر الرائع. وبدا ريتشارد بجانبها مشرفاً عليها وكأنه من سكان الكهوف في التاريخ السحيق، بينما كانا يتلمسان طريقهما على أنوار الشموع. أخيراً أرتهما النادلة مائدة منعزلة قامت بجانب ستار مزخرف يفصلها عن بقية القاعة، وتشرف على منظر رائع لضوء القمر يغمر البحر أسفل. وعندما قدم اليها ريتشارد الكرسي الخيزراني المنجد، شعرت بالعصبية وعدم القدرة على النطق كما لو أنها في الخامسة عشرة من عمرها، وعندما جلس هو أيضاً، بسطت النادلة منشفة قرمزية على ركبتي كل منهما، ثم ناولتهما قائمتي الطعام.

قال مقترحاً: «أظن أن ابتداء الطعام بدجاج مع صلصة البازيلا هو شيء حسن، أليس كذلك يا حبيبتي؟ وبعد ذلك البفتيك، ثم طبق من الفواكه الاستوائية.»

ولكن عندما ابتعدت النادلة، تلاشت ابتسامة ريتشارد.

استند بظهره إلى الخلف ومضى يتفحص وجه ايما بدقة وقد اختفى من وجهه كل أثر للعذوبة. ثم قال: «سمعت ان نايجل ويلنفس قد أفلس بعد أن تركك.»

فتحت ايما فمها لتحتج قائلة بأن نايجل لم يتركها. وفي الواقع كان الأمر على العكس من ذلك. ولكنها عادت فتساءلت بضجر عن فائدة هذا كله. وبعد، فقد اعتادت على حقد نايجل عليها. لقد ثار حين أوضحت له بعد موت أبيها ان يترك الشركة نهائياً. وهو لم ينسَ لها هذا قط، كما أنه صارحها بأن أموالها هي التي كانت جذبته اليها. ومن الطبيعي أن يجرح قوله هذا، كرامتها، ولكنها على العموم شعرت براحة كبرى. وعندما نشر الشائعات في أنحاء سيدني أنه هو الذي تركها، شعرت بأن من الأفضل، حفظاً لكرامتها، ألاّ تحتج على ذلك. وما زالت حتى في هذا الوقت تعتقد هذا.

قالت ببرود: «نعم، لقد سمعت بذلك. كان هذا من سوء الحظ.»

قال ريتشارد: «لا تقولي هذا. ففي رأيي هو يستحق ذلك. ولكن من المفروض أن يكون رأيك مختلفاً إذا كنت قد وقعت في غرامه. كنت أظنك ستعودين إليّ، ولكنني دهشت إذ رأيت أن لديك شيئاً من الكبرياء، يا ايما.»

كان لإيما على الدوام طبع عنيف، والآن وأعصابها قد أرهقتها الأحداث الأخيرة التي تعاقبت عليها منذ أشهر، وجدت هذه الوخزة من ريتشارد أكثر مما تستطيع احتمالها.»

حبست ايما أنفاسها وحدقت فيه بذعر. لماذا يقول مثل هذه الأشياء حتى ولو كان يفكر فيها، ومع أن لهجته الجافة

قد سلبت كلماته من أي احساس، فما زالت تحتوي على تأثير قوي عليها. ازدردت ريقها بصعوبة وهي تحاول أن تبتسم ساخرة: «إنك تمدحني. ولكن من الصعب عليّ تصديق ذلك.»

قال عابساً: «وكذلك أنا، فجمالك لا يعدو أن يكون مقبولاً، كما أن أنفك أطول مما يجب. هذا إلى أن الدلال أفسدك منذ الولادة. ليس لديك فكرة عن الوفاء، كما أنك مسرفة، عنيدة، دون قلب. ومع هذا، لا أستطيع أن أفهم السبب الذي يجعلني ما ازال أراك جذابة، ولكن الغريب أن هذا هو الواقع.»

ثارت ثورة ايما لهذه الكلمات المستفزة. فحدقت فيه بعيني هرة وحشية وهي تقول متحدية: «أحقاً؟ أما أنت، فإنك رائع وسيم، ثري، ذو جاذبية لا تقاوم ولديك طريقة رائعة في الكلام. ومع هذا، لا أستطيع أن أفهم السبب الذي لا يجعلني أراك جذاباً. ولكن الغريب أن هذا هو الواقع.»

مدّ يده الضخمة يقبض على معصمها، قائلاً: «إياك والسخرية مني، يا ايما، وإلا أقسم أنني سأجعلك تندمين على ذلك.»

ردت عليه بحدة: «كفّ عن تهديداتك السخيفة هذه، يا ريتشارد تكلم في الموضوع. ما هو هذا العرض الذي تريد أن تحدثني عنه؟»

«انه أمر بسيط جداً، يا ايما. إنني أعرض عليك برنامجاً لتسعين يوماً، يسمح لشركة بريرو بالاستمرار في العمل الثلاثة أشهر القادمة. هذا بالإضافة إلى أنني سأتقدم إلى انقاذك وكذلك ذلك المبنى الذي يضم مكاتبك. إنك بحاجة إلى مستأجر، كما انني بحاجة إلى مبنى وتوابعه. إن شركتي فيلدينغ تمتد وتنمو بسرعة حتى لم تعد مكاتبها تكفيها،

www.elromancia.com

وأنا على استعداد لاستلام عقد الايجار الذي كنت أنت عرضته على مصرف ساوفورد الذي عاد فأفلس.»

اجتاحت ايما موجة من الارتياح والذهول لدى سماعها هذا. إذن، فشركة أبيها لن تنهار وسيكون بإمكانها رفع رأسها ومواجهة الموظفين الذين يعتمدون عليها في معيشتهم. ثم ان سبع سنوات من الخبرة في دنيا الأعمال قد أرهقتها كما انهكت كاهلها مواصلة الترقب والحذر.

سألته بارتياب: «وما هي شروطك لذلك؟»

قال بلطف وعلى شفتيه ابتسامة قاسية: «إن لديّ شرطين. الشرط الأول هو أن أكون أنا المدير التنفيذي لشركة بريرو على الفور. فبالنسبة إلى خبرتي، أعتقد أن بامكاني تحويل العمل وجعله يسير بشكل مفيد وذلك في نهاية الأشهر الثلاثة، وبعد ذلك يمكنك العودة إلى استئناف العمل إذا شئت.»

سألته: «والشرط الثاني؟»

سكت برهة قبل أن يجيب وتألقت عيناه في ضوء الشموع بشكل قد يكون وعيداً، ثم قال بصوت خافت أجش: «هو أن تعودي إليّ بصفتك زوجتي... وبكل ما في هذه الكلمة من معنى. وذلك طوال الثلاثة أشهر المتفق عليها.» كان يتكلم بمثل جفاء من يتحدث في شؤون العمل. «وفي نهاية ذلك الوقت، يمكننا أن نعيد النظر في الوضع لنصنع قراراً نهائياً عن قصدنا. وأتصور أنه سيكون الطلاق، عند ذاك.»

تملك ايما الذهول لهذا الاقتراح وما يتضمنه من قسوة. فسألته بصوت مفعم بالاحساس بالخطر: «ماذا تعني؟ ما الذي تعنيه بقولك زوجة بكل معنى الكلمة؟»

أجاب بابتسامة باهتة: «أليس الأمر واضحاً؟ أعني أن

نعود إلى العيش معاً.» نظرت إيما إليه غير مصدقة، ثم انفجرت فيه تسأله: «ولماذا؟ ألم تقل لي منذ دقائق أنني مفسودة بالدلال، غير وفية، مسرفة عنيدة ودون قلب؟»

فقال: «نعم، وكله صحيح. فقد هجرتني وذهبت، فقط لأن شجاراً سخيفاً قام بيننا ما كانت لتكترث له أيّ امرأة عندها ذرة من النضج أو الالتزام. إنني لم أصفح عنك قط لهذا يا ايما.»

قالت متحدية: «وما السبب الذي جعلك تريد أن تعيش معي الآن؟ انك لن تقول ان الحب هو السبب، أليس كذلك؟»

اشتدت قبضته على أصابعها بقسوة، وتألقت عيناه السوداوان كقطعتين من الثلج، وهو يتمتم قائلاً: «آه، كلا، إنه ليس الحب يا ايما. إنه الانتقام.»

الفصل الثاني

ذهلت إيما وهو يجلس باسماً متهكماً بينما ينطق بكلمات إخترقت قلبها في الصميم. وازدردت ريقها بصعوبة محاولة أن تكتم ذعرها، وطال الصمت بينهما. أمسكت بزهرة من الزهرية التي أمامها على المائدة، وسحقتها بين أصابعها دون وعي ثم شمت أريجها العطر. ولكن قبل أن تنطق بجواب، جاءت النادلة بأطباق الطعام من قطع الدجاج المشوي. وتناولت إيما قطعتين أفرغتهما في صحنها مضيفة إليه الصلصة والتوابل قبل أن تمنح الفتاة ابتسامة متوترة، ومع هذا، عندما ابتعدت الفتاة، لم تمد يدها إلى الطعام.

قال بلهجة ودود: «إن طعامك سيبرد.» هذا وكأن كلماته التي كان نطق بها لم تكن اكثر إيلاماً مما لو كان أبدى ملاحظة عن الجوّ. «ألن تأكلي؟»

هزت رأسها نفياً، وأخيراً انفجرت به قائلة: «هل أنت جاد في جلوسك هنا لكي تخبرني بكل برود بأنك تريد أن تعيش معي ليس بسبب الحب وإنما في سبيل الانتقام؟»

«نعم.»

صرخت: «ولماذا؟»

أجاب وهو يبتلع طعامه مبتسماً لها: «لذلك السبب بالضبط، السيطرة. أريد أن أسيطر على الوضع ولو مرة، مقابل الوقت الذي كنت فيه ألعوبة في يدك ويد أبيك تتلاعبان بها.»

فقالت ساخطة: «إنك لم تكن بهذه الصفة أبداً.»

«ألم أكن كذلك؟ إسمعي، لقد تزوجتك لأنني كنت وقعت في غرامك وليس لأي سبب آخر. ولكن أباك حاول منذ البداية الادعاء بأنني أطمع في ثروتك. وكنت أنت من الحماقة بحيث صدقته.»

هتفت: «أنا لم أصدق ذلك، فأنا لم يكن يهمني ولو لم تكن تملك شيئاً. ألم أترك منزلي وأتزوجك؟ ثم عشت معك في ذلك البيت الصغير الفظيع في حي وولو مولو؟»

رد عليها بلهجة لاذعة: «وبقيت تركضين عائدة إلى أبيك كل دقيقتين لكي تظفري منه برضى.»

«هذا لأنني كنت أحبكما انتما الاثنين. كنت اريدكما أن تكونا صديقين. هل هذا شيء غير منطقي؟»

فأطلق ريتشارد ضحكة قاسية ورد عليها قائلاً: «نعم، إذا كنت تتعاملين مع شخص مثل فرانك بريرو، فقد كان ينوي أن يفرق بيننا منذ البداية.»

«هذا غير صحيح، إنني أعرف أن فكرة زواجنا لم تعجبه في البداية، ولكنه لم يكن يتعرض لنا بشيء. لماذا إذن أعطاك ذلك العقد الكبير لمركز مانلي للتسوق؟ لأنه أراد أن يساعدك.»

أطلق شتيمة من بين شفتيه ثم قال: «عمله ذاك كان خبيثاً، كان ذلك أحد أعماله الخفية لكي يفرق بيننا، يا إيما. إنني متأكد تماماً من أنه كان وراء استحالة حصولي على المواد اللازمة لكي أتمم العقد في الوقت المحدد. كانت محاولته لتعطيلي عن العمل هي الطريقة التي عاقبني بها لجرأتي على التعلق بك.»

فقالت غاضبة: «من السهل توجيه الاتهامات إلى شخص مات ولم يعد باستطاعته الدفاع عن نفسه، ولكن هل لديك اثباتات لذلك؟»

قال: «كلا، ليس لدي ذلك، ولكنني متأكد من ذلك تماماً، إن فرانك لديه سمعة سيئة في التحايل القذر. ولكن، على أية حال، مهما كان ما فعله أبوك أم لم يفعله، لو كنت أنت زوجة حقيقية لوقفت إلى جانبي أثناء تلك الأزمة.»

شهقت قائلة: «هل كان علي أن أفعل ذلك؟ حتى بعد أن خرجت غاضباً من البيت وأنت تشتم أبي طوال الطريق، ولم تعد طوال خمسة أيام؟ وليس هذا فقط ولكنك...»

فقال ريتشارد ببطء: «إسمعي، إنني لا أدعي بأنني زوج مثالي، ولكنني لا أظن أن أخطائي تبرر الانتقام الذي قمت به ضدي. إن أية زوجة مهذبة كانت ستجد عذراً للطريقة التي تصرفت أنا بها في ذاك اليوم، بدلاً من أن تحزم أمتعتها وتركض عائدة إلى البابا.»

أطبقت يدها بشدة على كوب العصير الذي كان في يدها حتى كادت تحطمه. وصرفت بأسنانها وهي تقاوم رغبة أخذت تدفعها إلى إفراغ محتوياته في وجه ريتشارد، وفكرت آه، نعم، إن أية زوجة مهذبة كانت ستدير بصرها إلى الناحية الأخرى بينما تتعرف أنت إلى امرأة أخرى بعد الزواج بأحد عشر شهراً فقط، حسناً، لم يكن بامكاني أن أتصرف بهذا الشكل. لقد كرهتك في ذلك الحين، وأكرهك الآن لهذا الأذى الذي ألحقته بي. كان هذا ما أخذت إيما تفكر فيه، ولكنها عندما تكلمت، جاءت كلماتها ناعمة هشة باردة وهي تقول: «لسوء الحظ، لم أكن زوجة مهذبة.»

ابتسم هازئاً وهو يقول: «ليس في ذلك الحين، ولكن لديك فرصة أخرى الآن، يا حبيبتي، وهذه المرة ستكونين أفضل. عودي إلي وتصرفي بالشكل الذي أريدك أن تتصرفي به، بالضبط.»

سألته بصوت غير ثابت: «ولماذا؟ لماذا تريدني أن أقوم بذلك؟»

«لقد سبق وأخبرتك، أريد أن يكون أمر علاقتنا بيدي أنا.»

«وإذا أنا رفضت؟»

هز كتفيه: «عند ذلك ستعلنين إفلاس شركتك.»

فتأوهت غير مصدقة: «إن هذا عمل لا إنساني.»

«وهل ثمة ما هو لا إنساني أكثر من الطريقة التي عاملتني أنت بها؟»

فلم تستطع التحكم بيديها. عبثت بالسكين أمامها... أخذت تخطط على غطاء الطاولة أشكالاً باصبعها، وطوال الوقت، كانت التعاسة تزحف إلى كيانها، وعندما لم تعد تستطيع تحمل أكثر من ذلك، حدقت إليه وهي تقول بضراعة: «ريتشارد، أرجوك. لقد قلت إنك تزوجتني بسبب الحب. فاذا كان ما زال هنالك بقية من شعورك ذاك نحوي، فلا تعذبني بهذا الشكل، هذه قسوة. إنها تجعل من حبنا السابق سخرية.»

ولكن وجه ريتشارد بقي قاسياً وكأنه قد من الصوان وهو يرد عليها بصوت ناعم: «آه، ولكن ليس لدي أي بقية من ذلك الشعور، يا إيما، إن سلوكك قتل كل مشاعر حبي لك.»

أغمضت عينيها لحظة، ثم قالت وهي ترتجف: «وبعد ذلك؟»

www.elromancia.com

«يمكننا بعد ذلك أن نحصل على الطلاق. إذ ربما أردت أنا الزواج من إمرأة أخرى، إمرأة يمكنني أن أحبها وأحترمها.»

شعرت لدى هذا الكلمات بموجة من الذعر بعثت الغثيان في نفسها، وحملقت فيه تسأله: «هل في ذهنك إمرأة معينة؟»

هز كتفية وقال بلهجة غامضة: «ربما، أو أنك أنت قد تفكرين في الزواج مرة أخرى.»

التوت ملامحها بابتسامة، وقالت: «لا أظن ذلك، بعد كل ما عانيته، لا أظنني سأقدم على الزواج مرة أخرى.»

ابتسم لها ساخراً، ورفع كوبه قائلاً: «انت تريدين المال واقتناء الاصدقاء، وهذه هي الأشياء التي أنت في منتهى الحرص عليها، أليس كذلك، يا عزيزي؟»

قالت وهي تتنفس بعنف: «يا لك من وغد.»

«إنني مسرور لادراك هذا، يا إيما، حسناً، ما هو رأيك؟»

حاولت أن تكبت غضبها وتفكر ببرود وتعقل. لقد عملت جاهدة في سبيل الصعود بشركتها إلى حيث هي الآن، ولولا أن الأمر يتعلق بإفلاس مصرف ساوفورد، لكانت أعمالها مزدهرة الآن، هذا إلى أن هنالك الموظفين عندها الذين يعتمدون عليها في معيشتهم، ما الذي سيحدث لهم لو انهارت الشركة؟ مهما كان مقدار كراهيتها لريتشارد هذه اللحظة، فالوفاء للآخرين يستحثها على قبول عرضه. ولكن وراء ذلك كان ثمة سبب آخر... وهو شوق مفاجيء... شعور جنوني غير مرغوب فيه إلى أن تعود إلى ريتشارد، كانت تعلم أن هذا لن يكون بصفة دائمة. ولكن رؤيتها لريتشارد قد

أيقظت في نفسها كل مشاعرها القديمة نحوه، حتى ولو لم تجد الحب معه. أحنت رأسها موافقة وهي تقول بمرارة: «يبدو أن ليس أمامي طريق آخر.»

«أنظري إلي يا إيما. أخبريني بوضوح عما تريدين أن تقومي به.»

تلاقت نظراتهما... ملتهبة بالكراهية وبشيء آخر، وتمتمت قائلة: «سأعود إليك بصفتي زوجتك.»

تمتم بنفس الجفاء الذي سيرد عليها به لو أنها وافقت على أن تصبح كاتبة اختزال عنده. تمتم يقول: «إذن، فأرى أن تتناولي شيئاً من هذا الطعام الممتاز وبعد ذلك سنذهب لنتمشى قليلاً على الشاطيء قبل أن نعود إلى المنزل.»

نظرت إلى الدجاج المشوي بفزع وكأنه سم زعاف، وشعرت بيديها قد اثلجتا فجأة وذلك بالرغم من حرارة الجو الاستوائية.

قالت متلعثمة: «و... ومتى يبدأ اجتماعنا هذا؟»

ابتسم متكاسلاً وقد تألقت عيناه بالهزل: «آه، ألم أخبرك؟ إنه سيبدأ هذه الليلة.»

فشهقت قائلة: «الليلة؟»

«نعم، لقد نزلت الليلة الماضية في فندق آخر في سانور، ولكنني أعطيت أمراً بأن تنقل أمتعتي إلى هذا البيت هذا المساء. وعندما نعود ستكون قد وصلت.»

هزت رأسها وهي تقول: «لا أصدق هذا، هذا لم يحدث حقيقة.»

فقال لها بلطف: «نعم، إنه حقيقة، إنك ستصدقين الأمر بكل سهولة غداً صباحاً، ولا تقلقي، فسأتصل غداً صباحاً

بالمحامين عندي وبالمصرف الذي أتعامل معه للقيام بالجانب التمويلي من اتفاقنا.»

ولم تكد إيما تسمع الجملة الأخيرة. فقد كانت مشغولة بالفزع وهي تفكر في ما لمح إليه. وفي محاولة جاهدة لتوفير جو طبيعي سحبت قطعة من الدجاج المشوي، وغمسته في الصلصة ثم أكلتها. وأدهشها أن تجد طعمها لذيذاً.

قالت: «الطعام مازال حسناً جداً هنا، أليس كذلك؟»

كان ينتابها شبه شعور جنوني بأن كل هذا ليس الا حلماً ستستفيق منه في أية لحظة.

وفي هذه الأثناء، بدت ابتسامة ريتشارد حقيقية تقريباً وهو يقول: «نعم، كنت أفكر غالباً في هذا المكان أثناء السنوات التي مرت، وأظنك أنت أيضاً فعلت هذا وإلا لما كنت هنا الآن. دعيني أتذكر ماذا أيضاً كنا فعلناه آخر مرة كنا فيها هنا؟ آه، نعم، إنها الرحلة إلى بينيلوكان. لقد كان من أروع الأمكنة حقاً. ربما علينا أن نذهب إلى هنالك غداً ونرى إذا كان ما يزال بجماله الرائع ذاك. ما رأيك؟»

حدقت فيه وكأنما اختلط الماضي بالحاضر. أتراه يعرض حقاً أن يعود إلى إعادة كل تفاصيل شهر عسلهما ذاك، وكأن ذلك الخصام العنيف، والتباعد والجفاء والعداء طوال السنوات الثماني الماضية، كل ذلك لم يحدث قط؟ حسناً، إذا كان الأمر كذلك، ربما أسلم الأمور عاقبة مما تستطيع أن تقوم به، هو مسايرته في الهزل، فقالت بصوت متوتر وهي تبحث حولها عن طريقة للهرب: «ما أجمل ذلك، يا عزيزي.»

ولكن كل ما أمكنها رؤيته هو النادلة قادمة نحوهما لكي ترفع أطباقهما الفارغة. وبعد ذلك بقليل عادت تحمل أطباقاً من اللحم والقريدس والخضر بالكاري حول طبق كبير من الأرز. سكب ريتشارد في طبق إيما من كل هذه الأنواع. وعبس هازلاً عندما سقطت من شوكته واحدة من القريدس في إناء الزهور، وقال: «يبدو وكأنني مازلت غير رشيق الحركة في تناول الطعام. هل مازلت خائبة في الطهو كما كنت يا إيما؟»

لوت إيما أسارير وجهها، وقد توزعت مشاعرها بين الهزل والكراهية: «ليس تماماً، ولكنه ليس عملي المفضل، فأنا أميل إلى شراء الطعام الجاهز، ثم أسخنه، في الفرن.»

«أتذكرين يا إيما عندما صنعت مرة قالب كيك بالشوكولاته في الفرن فانتفخ وانتفخ ثم انفجر أخيراً؟»

التوت شفتاها بشبه ابتسامة لا ارادية وهي تتذكر ذلك، قالت: «نعم، كان ذلك مفزعاً. وقد كنت نسيت السكر أيضاً. ومع هذا فقد أكلته أنت.»

فتمتم قائلاً: «الحب يصنع الكثير.»

شعرت بانقباض هائل في صدرها وكأنما اعتصرت قلبها كلابات باردة. كيف بامكانه الجلوس هكذا والمزاح، وكأن عودتهما إلى بعضهما هو حقيقي؟ وكأن ذلك الحب الذي كان يسندهما خلال معاناتهما تلك في أوائل حياتهما الزوجية ما زالت ذكراه حية متألقة؟ أمسكت أنفاسها وخفضت نظراتها.

فسألها: «ما الذي حدث؟»

أجابت هامسة: «يا ليتك كنت طلبت مني أي شيء ما عدا

هذا الأمر، يا ريتشارد. فهو سيكون مقيتاً مؤلماً، لا يمكنني احتمال ذلك.»

تلاشى الهزل من وجهه وبدت القسوة في عينيه وهو يقول: «لا بد من ذلك.»

تحدثا قليلاً بقية الوقت وهما يتناولان الفاكهة والحلوى ولكن يبدو أن ذلك فشل في إيقاد حماسها، كان كل ذهنها وكيانها منحصراً في سؤال واحد، وهو... ما الذي سيحدث بعد ذلك؟

ومع هذا، عندما أنهيا القهوة، واستقلا المصعد إلى الطابق الأرضي، لم يتجه ريتشارد بها مباشرة إلى البيت وهو ما كانت تخشاه. لقد اتجه بها بدلاً من ذلك، نحو الشاطىء قائلاً: «فلنذهب لرؤية البحر.»

قالت: «إن هذا يجعلني أحتقرك.»

رد عليها بعد ضحكة قصيرة: «أحقاً؟ حسناً، أظن أن شعورك نحوي لا يهمني إطلاقاً، يا إيما. شعوري أنا هو الذي يهمني. وأنا أشعر الآن بالرضى التام.»

قالت له: «هيا بنا، إذن، ما الذي تنتظره؟»

كان حذاء السهرة الذهبي الذي تحتذيه يغوص في الرمل عند كل خطوة ما جعل من السهل على ريتشارد أن يلحق بها. تمنت لو أنه يسألها عن سبب تركها المفاجىء له، ما يمكنها من أن تخبره عن بعض الصفات الأساسية المؤذية في شخصه، ولكنه كان يبدو ساهماً أو لا مبالياً نحو هذا الأمر. بل سار ببساطة، بجانبها وقد بدا عليه الهدوء والارتياح وكأنهما لم يأتيا إلى هنا إلا لمجرد الاستمتاع بمنظر تدافع الأمواج وهي تحطم فوق الصخور، وبشذا الأزهار

الاستوائية التي يعبق بها الجو، وبضوء القمر الذي يتألق على صفحة الماء، فشعرت إيما باضطراب بالغ كاد ينسيها وجهة التحول نحو الفندق ما جعل ريتشارد يمسك بيدها.

نهرته قائلة: «أتركني.»

أجاب بصوت ساخر: «كما تشائين، بامكاني الانتظار.»

عندما وصلا إلى البيت، تقدمت أمامه بسرعة ووضعت المفتاح في قفل الباب بأصابع ترتجف، ثم اندفعت صاعدة السلم ومن ثم إلى الحمام حيث صفقت الباب خلفها، ثم استندت إليه وقلبها يخفق بعنف.

أحنقها أن ترى نفسها في المرآة مشعثة الهيئة والشعر وهي التي اعتادت أن تبدو دائماً سيدة أعمال باردة متحفظة، وتناولت إسفنجة مسحت بها كل أثر للزينة ولريتشارد عن وجهها.

كان ريتشارد قد أضاء المصباح الجانبي ما جعل الغرفة تسبح في ضوء اصفر ناعم. وعندما فتحت الباب، تحول ينظر إليها. وشعرت، للنظرة التي رقمها بها، بأن إعجابه بها لا يقل عن أعجابها به، لكنها سألته بازدراء وتحد: «حسناً؟»

أجاب: «أخبريني بأنك تحبينني، قوليها.»

وهمس مرة أخرى بالحاح: «قوليها.»

فقالت: «أنا أحبك، يا ريتشارد.»

قال ببرود: «هذا كل ما كنت أريد أن أعرفه.»

وما لبث الذهول والشعور بالخيبة أن تملكاها عندما أخذ يحدق فيها بمزيج غريب من الانجذاب والكراهية في عينيه.

«تصبحين على خير، يا إيما.»

لم تسأله عن سبب تصرفه هذا. فقد سبق وعرفت ذلك، فهو يريد إذلالها، هذا هو انتقامه. وبقيت مستيقظة ساعات تتقلب في فراشها، تغير من وضع وسادتها، وتصدر شهقات ضيق وانزعاج، ولكن النوم غلبها حوالي الساعة الثالثة صباحاً، وآخر ما كان يحتل ذهنها هو كلمات أخذت تتردد بانتظام مع تنفسها: أكرهه، أكرهه أكرهه...

كانت أحلامها مشوشة قلقة، ولم تكن تتركز على ذلك المشهد المذل الذي عانته، وإنما على ذلك الشجار العنيف الذي كان فرق بينهما منذ ثماني سنوات، ما عدا أن ريتشارد، هذه المرة، لم يغادر المنزل غاضباً دون أي تفسير. لقد عاد إليها بدلاً من ذلك، ثم أخبرها بقصة طويلة مشوشة بالغة التعقيد أصلحت الأمور بينهما بشكل رقيق كانت في الحلم تشعر بسعادة وهدوء بالغين، ثم تغير الحلم وأصبحت في مكتبها في الشركة بريرو تحاول أن تجعل أباها فخوراً بها، وقد تملكها شعور بالقلق والتعاسة، وفي سمعها صوت كمبيوتر. وعندما أخذت تستيقظ ببطء، أدركت أنه لم يكن حلماً فقط، فقد كان هناك كمبيوتر في الغرفة فعلاً. جلست تطرف بعينها. كان الأمر مذهلاً تماماً، فقد كان ريتشارد جالساً إلى مكتب في زاوية من الغرفة وأمامه كمبيوتر صغير. فاندفعت تقول: «ما الذي تفعله؟»

استدار وابتسم لها، ثم انتزع مستنداً من طابع الكمبيوتر ولوح لها به، قائلاً: «إنني أشتغل، فأنا أريدك أن توقعي هذه بعد لحظة. إنها رسالة تلقيتها بالفاكس من محامي شركتي بالنسبة للعقد بيننا عن شؤون المكتب المعقدة.»

نظرت إليه نظرة مضطربة، ثم أشاحت بوجهها عنه.

قال: «لمَ لا نتناول الافطار على الشرفة؟»

ولأنه لم يكن ثمة شيء آخر تقوم به، وافقت على ذلك قائلة: «لا بأس، هل لك أن تطلب ذلك من خادم الفندق؟»

«لقد سبق وفعلت ذلك.»

وأدار ظهره إليها عائداً للعمل على الكمبيوتر وكأنه فقد كل اهتمام بها ما جعلها تشعر بشيء من الاهانة، نهضت من السرير ثم اتجهت نحو الحمام. وعندما عادت بعد دقائق وجدت ريتشارد قد سبقها إلى الجلوس في الشرفة أمام المائدة وأمامه ابريق من العصير المثلج، وفاكهة وقهوة وفطائر دانمركية. وبجانب كل ذلك كانت آلة تصوير وكتيبات سياحية وخرائط، ابتسم لها وكأن ليس بينهما شيء مزعج، وقال لها: «إجلسي وتناولي طعامك، ثم نقرر ما سنقوم به في إجازتنا هذه.»

كانت القهوة رائعة وكذلك الفطائر، ولكن إيما وجدت صعوبة في حصر ذهنها في طعامها، كانت طوال الوقت ترمق ريتشارد بعصبية وتأمل، محاولة أن تستنتج نواياه. ولكنه بدا مشرقاً هادىء الأعصاب وكأنه كان يستمتع فقط باجازة طال انتظاره لها.

وعندما أنهت طعامها، مدّ إليها يده بأحد الكتيبات، يسألها: «ما رأيك في رحلة قصيرة الى بينيلوكان؟»

أجفلت إيما، لقد أثار سؤاله هذا في ذهنها سيلاً من الذكريات غير المرغوب فيها عن البحيرة الزرقاء الرائعة التي تقوم عالياً في الجبال في شمال الجزيرة. كانت بحيرة باتور تقوم في فوهة بركان خامد.

وكانت الأيام القليلة التي كانا أمضياها في اكتشاف المنطقة الريفية الشاعرية حولها، كانت الأجمل في شهر عسل ريتشارد وإيما. ولهذا السبب بالذات، أرادت هي الآن أن تتجنبها كما تتجنب منطقة موبوءة، فاندفعت تقول: «كلا، لا أحب ذلك.»

هز كتفيه بعدم اكتراث وقال: «ما الذي تحبين القيام به، إذن؟ وبعد، ما زال أمامنا وقت طويل معاً علينا أن نمضيه.»

شعرت، لقوله هذا، بطعنة في الصميم، كيف يمكن لأي إنسان أن يعتبر وجوده في بالي مجرد تمضية وقت، وذلك من بين جميع الأماكن؟ ذلك المكان الاستوائي الشاعري الذي فتنها مرة، إلى حد شعرت معه بأن كل دقيقة أمضتها فيه كانت لاتُثَمَّنْ وطبعاً كان هذا هو شعورها، في ذلك الحين، نحو كل وقت امضته في صحبة ريتشارد. حسناً، لقد تغيرت الأمور بكل تأكيد. والتوت شفتاها بابتسامة ساخرة وهي ترد عليه قائلة: «لا أهتم بما نقوم به، ولو أنني، بصراحة، أرجو ألاّ يكون علينا قضاء أوقات كثيرة معاً وحدنا. ربما بامكاننا أن نذهب للتسوق، أو نتفرج على الشوارع والأحياء الوطنية.»

حاولت أن تحتفظ بصوتها مثل صوته، عادياً لا مبالياً، لم تكن تريد على الاطلاق أن تدع ريتشارد يكتشف سبب تجنبها الذهاب إلى بينيلوكان... كانت تخاف من أن تنهار باكية إذا هي ذهبت إلى هناك بصحبته، هذا إلى أنها إذا مكثت هنا في جنوب الجزيرة، فهي ستكون على الدوام قريبة من المطار في توبان حتى إذا شعرت باليأس في أي وقت كان، فستتمكن من الهرب عائدة إلى سيدني، ولكن

ريتشارد لم يبد عليه أنه لاحظ تلك الرجفة الخفيفة في صوتها والتي ذهبت بتوازنها. كان متكئاً في كرسيه إلى الخلف وقد بدت على شفتيه ابتسامة فوز ساخرة، وهو يجيبها متكاسلاً: «لا بأس، سنقوم بكل تلك الأمور، وسيكون شهر عسلنا الثاني، يا إيما.»

www.elromancia.com

الفصل الثالث

ابتدأ شهر عسلهما الثاني في ذلك الصباح نفسه، وكان صباحاً استوائياً رائعاً كالعادة، فقد كانت السماء فوق رأسيهما زرقاء صافية، والجو دافئاً مشبعاً بأريج الزهور، وكانت مياه البحيرة متألقة. إن تظاهر ريتشارد بالاهتمام براحتها لم يجعل شعورها نحوه أفضل من السابق. حتى عندما طلب لهما كوبين من عصير الفاكهة المثلج، من نادلٍ مرّ بهما، لم تشكره وإنما رمقته بنظرة غاضبة، فابتلع جرعة كبيرة من العصير وهو يبتسم ساخراً، ثم وضع كوبه على الأرض وأخذ يربت على رأسها قائلاً: «لا تغضبي بهذا الشكل، يا عزيزتي، فأنت ترفعين بهذا من حرارة الجوّ حولنا خمس درجات على الأقل.»

نظرت إليه يشق عباب مياه البحيرة باندفاعة قوية، ثم حولت نظرها عنه إلى القاطنين في المنطقة، فرأت العريسين اللذين يمضيان شهر العسل واللذين سبق ورأتهما في الحافلة في اليوم السابق، رأتهما يمرحان مبتهجين بكل ما في شبابهما من خلوّ بال، وبينما هي تنظر اليهما، اقترب الشاب ومد يده إلى أحد كوبي العصير المثلج أمام ايما، ثم أخذ جرعة كبيرة منه.

صرخت إيما محذرة: «آه، إنتظر لحظة. إن هذا الكوب لزوجي.»

فابتسم لها الفتى آسفاً وهو يقول: «أحقاً؟ لا بأس، إنني جداً آسف. إن لدينا كوبين مماثلين لهذين، وذلك في مكان ما بجانب البحيرة. إسمعي، سأطلب لزوجك كوباً آخر بدلاً من هذا.» وأشار إلى النادل.

جذبت هذه الفوضى انظار ريتشارد وزوجة الشاب فاقتربا من المكان لمعرفة ما يحدث.

فقال ريتشارد للشاب: «لا تهتم لهذا الأمر.» ولكن النادل كان قد عاد وفي يده كوب العصير، فأصر ريتشارد بقوله: «سجله في حسابي. المنزل رقم خمسة فيلدينغ.» ولم يلتفت إلى احتجاج الفتى.

قال الشاب بارتباك: «شكراً جزيلاً. انني أشعر بحماقتي لتصرفي ذاك.»

قال ريتشارد: «لا تدع هذا يقلقك. لمَ لا تجلسان معنا، أنت وزوجتك؟»

سحب العروسان كرسيين وجلسا معهما.

قال الشاب: «اسمي ستيفن كاستل وهذه زوجتي جولي.» وتلعثم قليلاً وهو ينطق بكلمة (زوجتي) بينما احمر وجه جولي.

أجاب ريتشارد وهو يصافحهما: «إننا ريتشارد وإيما فيلدنغ.»

قالت جولي وهي تنظر إلى عريسها: «إننا في شهر العسل.»

أجاب ريتشارد وهو يرمق إيما: «وكذلك نحن، إنه شهر عسلنا الثاني، لقد كنا أمضينا الأول هنا في بالي أيضاً.»

تنهدت جولي قائلة: «آه، أحقاً؟ يا لشاعرية هذا، وأنتما احببتما المكان إلى حد جعلكما تعودان؟ هذا عظيم.»

فقالت إيما وهي تمنح جولي ابتسامة صغيرة متوترة وترمق ريتشارد: «نعم، عظيم جداً.»

ولكن هذا لم يثبط من عزيمة جولي، فعادت تقول: «منذ متى كان شهر عسلكما الأول؟»

قال ريتشارد: «منذ تسع سنوات.»

بدت الكآبة على وجه جولي وهي تقول: «إذن، اظنكما تركتما الأولاد في البيت الآن؟»

رمق ريتشارد إيما بنظرة غامضة، ثم ابتسم لجولي وقال: «كلا. فنحن لم ننجب أطفالاً بعد، رغم رغبتي الشديدة بذلك. وأنا متأكد من أن هذه رغبة إيما أيضاً.»

حتى جولي، شعرت بالإرتباك لسماعها هذا، ولكنها قالت بسرعة: «إذن، فليس امامكما إلا أن تستمرا في المحاولة، أليس كذلك؟»

فتمتم زوجها وهو يشير لها إلى ملامح إيما المتحجرة: «اظن علينا أن نذهب لنرتاح قبل الغداء. نرجو المعذرة منكما وشكراً لضيافتكما.»

عندما ابتعد العروسان، انفجرت إيما في ريتشارد قائلة بحدة: «ما الذي جعلك تقول شيئاً كهذا؟»

«أي شيء تعنين؟»

كان ريتشارد قد تمدد على المقعد المستطيل، عاقداً ذراعيه خلف رأسه متكاسلاً وكأن لا شيء يشغل ذهنه سوى الاستمتاع بأشعة الشمس.

فردت عليه تقول: «كل ذلك الكلام عن إنجاب الأولاد.»

رفع حاجبيه وقال مؤنباً: «انني فعلاً أريد أولاداً.»

ففوجئت إيما. وسرت في كيانها رجفة غريبة تبعها على الفور شعور بالغ بالريبة، فقالت ساخرة: «آه، نعم. اظنك تريد أولاداً مني؟»

تنهد ريتشارد وأجاب وهو يهز رأسه: «كلا. عندما سيكون لي أولاد في النهاية، أريد ان اشعر بأنهم أولادي حقاً.»

توهج وجهها لهذه الاهانة، وقالت: «يا لك من وغد. هل تريد أن تقول انني إذا كنت أمهم، فلن تكون انت متأكداً من أنهم أولادك؟»

أومأ برأسه يستفزها بذلك، فعادت تسأله: «اتعتبرني امرأة عابثة؟»

كان استفزازه لها هذه المرة، واضحاً وهو يقول: «إذا انا اعتبرتك كذلك، فعليك ان تلومي سلوكك لهذا.»

فصرفت إيما باسنانها. وفي الواقع، لم يكن في حياتها أي رجل إلا في مخيلات الصحافيين الخصبة، فيا له من ظلم مرير. بدا الحزن على ملامحها وهي تتذكر كيف حدث ذلك، لو لم يكن الألم والعذاب قد برحا بها إثر اكتشافها خداع ريتشارد، لما ألقت نظرة اكتراث على مدير المبيعات ذاك في شركة بريرو. كان لشخصية نايجل ذات التأثير المتكلف إلى حبه للظهور ان تسبب لها في الأحوال الطبيعية، النفور. ولكنها لم تكن تجتاز ظروفاً طبيعية في ذلك الحين. فرغم انها كانت في العشرين من عمرها فقط، وتعاني من جرح عميق في قلبها، إلا انها ظلت حريصة على ان تمنح ريتشارد فرصة اخرى. وتجهم وجهها وهي تتذكر تلك الرسالة

الحافلة بالتوسل التي كانت كتبتها إليه وسلمتها لأبيها لكي يسلمها له يداً بيد. ولكنها لم تتسلم من ريتشارد كلمة واحدة جواباً عليها. ولا كلمة. وعندما كانت وحيدة في أول ذكرى زواج لها، اصبحت فريسة سهلة عندما جاء نايجل لزيارتها ليغدق عليها الحنان من كلام معسول لبق. ولكنها سرعان ما فصمت تلك العلاقة بعد ان شعرت بالذعر لسلوكها ذاك. ولكن ما الذي يجعل لريتشارد الحق في انتقادها؟ فهو الذي خدعها أولاً، وهو الذي ما فتئت صفحات اخبار عن علاقاته منذ ذلك الحين.

انفجرت فيه قائلة: «اظنك كنت ظالماً جداً، فقد كانت لك صداقات عديدة في الوقت الذي كنت فيه زوجتك. أليس كذلك؟»

اعترف قائلاً بسخرية: «هذا صحيح.»

فقالت: «لماذا ليس لي الحق إذن في أن تكون لي صداقات أخرى؟»

أجاب: «ليس هناك من يحاول منعك من ذلك، يا حبيبتي، انا فقط قلت انني اريد اولاداً في أقرب وقت، وانك مرشحة غير مناسبة مطلقاً لتكوني أمهم.»

سحبت إيما نفساً سريعاً مرتجفاً وقد تقبضت يداها، لم تكن ثمة وسيلة تجعلها تقبل بأن تكون أماً لأولاد من ريتشارد، رغم أن هذه الفكرة كانت يوماً ما، تغمرها بالسعادة، ولكن سخريته احنقتها. فقالت تسأله وقد التهبت عيناها: «ماالذي تهدف إليه بقولك هذا؟»

أجاب وهو يعمس عينيه إزاء الشمس فوقه، ثم يعدل من وضع مظلة الشاطىء القريبة بحيث يغمره ظلها، أجاب قائلاً:

«ربما سأنال الطلاق ثم اتزوج من امرأة أخرى حالما تنتهي هذه الفترة الفاصلة معك.»

حدقت إيما فيه بذعر، وسألته بحدة: «هل في ذهنك امرأة معينة؟»

أجاب بابتسامة خفية: «بالضبط.»

كيف يجلس هكذا ويخبرها أنه مغرم بامرأة أخرى، بينما ما زال ناوياً على العيش معها بقصد الانتقام؟ هذا شيء لا يغتفر، فانفجرت تقول: «يا لك... ولكن لماذا أنت معي هنا؟»

أجاب وعيناه تلمعان: «لقد سبق واخبرتك بالسبب، يا إيما، لقد اصبحت مؤخراً، بالنسبة إليّ، نوعاً من هاجس تافه، وفي الواقع، انك اشبه بمرض الصدفية الجلدي. سهل تشخصيه، وصعب التخلص منه.»

قالت: «اشكرك. لقد أمضيت حياتي أتمنى أن يقارنني رجل بمرض جلدي.»

«يسعدني ان اقدم لك ذلك، ولكن هذه المقارنة هي اكثر دقة مما تظنين، فقد عانيت كثيراً من الحكة. والغضب المتفجر، واستحالة تركيز ذهني في أي شيء آخر في الوقت الذي مازلت متألماً منه، وهكذا فكرت في أنه ربما أفضل طريقة للشفاء من هذا المرض هي الانغماس فيه.»

ردت إيما بقولها: «هذا رائع، وما هو خياري أنا في هذا الأمر؟»

«لقد حصلت على خيارك، وأجرك، وهو مبادلة شركة بريرو بالعيش معي.»

فقالت: «انك حقاً تظن أن كل شيء يمكن أن يباع ويشترى، أليس كذلك؟»

www.elromancia.com

«تماماً، وهذا درس سبق وتعلمته منك ومن أبيك.»

لهثت ساخطة، ثم سددت إليه صفعة مدوّية خلفت أثراً محمراً لاصابعها على وجنته، ولكن لم يكد يبدو عليه أن لحظ ذلك، إنما قبض على يدها اليمنى بعنف آلمها، وقال بلطف: «آه، لا اريد عنفاً، فهذا ليس جزءاً من اللعبة.»

قالت بصوت مختنق: «انها ليست لعبة.»

«بل هي كذلك.»

فهتفت تقول: «إذن فانهها. اعفني من هذا الوضع السخيف المذل.»

كانت ترتجف وهي تقول ذلك، بينما كان هو يمسك بيديها الاثنتين، وهو يتمتم قائلاً: «انه ليسرني ان أراك تتوسلين، يا إيما، ولكن ذلك سيكون عندما أشاء أنا، وفي نفس الوقت، اظن ان علينا ان نقوم بمزيد من التفرج على معالم المنطقة، الا تحبين ذلك؟ ما رأيك في التفرج على محلات النحاتين في باتوبولان هذا النهار؟»

نظرت إيما بعيني لا تريان، وذلك من خلال نافذة السيارة التي كانت تنطلق بهما في طريق كلانغونغ متجهة نحو باتوبولان.

في الأحوال العادية، كان لتلك المناظر غير المألوفة التي كانت تمر بهما بسرعة وخفة، كان لها ان تخلب لب إيما، غابات استوائية كثيفة ومزارع قاتمة الخضرة متناثرة هنا وهناك بين مجموعات من المنازل. وشيئاً فشيئاً، ابتدأت ملامح العاصمة دينبازار تتضح بسوقها المزدحم وعربات الخيل البراقة الألوان المزينة بالأجراس، وفكرت بتعاسة في أن كل معالم الشرق هذه لا تبهجها حيث أن احجية اكبر

من ذلك تستغرق افكارها... ما الذي تفعله هنا مع ريتشارد؟ واختلست نظرة سريعة من زوجها، ولكن وجهها سرعان ما توهج احمراراً إذ التقت عيناها بعينيه، فعبس وحول عينيه إلى الطريق على الفور، بينما غرزت إيما اصابعها في راحتيها متمنية لو تهرب من هذا الوضع. كان وضعاً سخيفاً هذا الذي وجدت فيه نفسها، متزوجة ومع هذا غير متزوجة. في شهر العسل وليست في شهر العسل. قريبان الواحد من الآخر كما لم يحدث قط في الثماني سنوات الماضية ومع هذا هما منفصلان إلى حد يمكن للمرء ان يطلق رصاصة بينهما دون إصابة أي منهما، والأسوأ من كل هذا، في الوقت الذي لم يكن يبدو على جسم ريتشارد أي اختلاف عن ذلك الشاب ذي السادسة والعشرين الذي تزوجت، فقد كان بمشاعر رجلٍ غريب عنها الآن. نعم، لقد كان طموحاً دائماً. منذ اللحظة التي عرفته فيها، عندما كان مجرد عامل بناء قد لذعت الشمس جلده، نادر الكلام، أحست على الفور أنه يخفي عمقاً يجعله يختلف عن أقرانه. ولم يدهشها أن تعلم انه كان يدرس الحقوق جزءاً من الوقت، وقد أسر إليها بنيته في ان يقيم شركة مقاولات باسم مقاولات فيلدينغ يتخذ له اكبر بناية في سيدني. ولم تكن تشك قط في إمكان قيامه بهذا العمل، فقد كان دوماً شاباً طموحاً، بالغ الثقة في نفسه، يمنح أي عمل يقوم به كل طاقته، فلا عجب في أن يدرك كل هذا النجاح الملحوظ شهادة الحقوق، امتلاك العقارات، ذلك القصر في فاوكلوز. لقد شعرت إيما بشعور بالغ بالأسف لعدم قدرتها على مشاركته تلك الانتصارات. كما كان أسفها أسوأ وأشد لتحطم ذلك الحب الذي كان بينهما ذات يوم. لم

يعد ريتشارد الآن ذلك الرجل الملتهب المشاعر، المتفجر الطبع، الكريم ذا القلب الدافىء الذي تزوجته. لقد اصبح، بدلاً من ذلك، رجلا بارد الطبع، ساخراً، حقوداً محباً للانتقام يريد ان يستمتع بها لينبذها بعد ذلك كأي امرأة يشتريها بنقوده وذلك لأنها تجرأت مرة على أن تنظر إلى رجل آخر.

وصدرت عنها آهة ألم اسرعت بتحويلها إلى سعال واخذت تنظر من نافذة السيارة. ولكن كان من المستحيل عليها تجاهل احساسها المتزايد بالإضطراب والغضب. ان ما يريده ريتشارد منها هو شيء غير انساني وفي منتهى القسوة. وحقيقة انها مازالت زوجته، ومازالت تحبه، لا تجعل الأمور افضل بل أسوأ مما هي، هل هي ما تزال تحبه؟ وشعرت بالهلع. انها طبعاً لا تحبه. ولكن، حتى ولو انكر عليها عقلها ذلك، فإن اضطراب دقات قلبها، وذلك الاحساس العميق بالحنين إليه كان يخبرها بشيء مختلف. وألقت بنظرة جانبية إلى ذلك الوجه الصارم القاسي، فالهب كيانها ألم جعلها تكاد تختنق. كلا، من الأفضل ان تكون صريحة مع نفسها. انها تحب ريتشارد وربما ستستمر في حبه. وذلك بالرغم من خداعه لها ومن الطريقة القاسية التي يسعى بها إلى الانتقام مستغلاً ضعفها وسوء اوضاعها المالية.

افزعها إدراكها هذا. لو أنها فقط قست قلبها وابتسمت ساخرة من مطالب ريتشارد، ربما كان بإمكانها ان تخرج من هذا الوضع سليمة معافاة، ولكنها الآن تحت قبضته تماماً ومحتوم عليها، في النهاية، آلام لاحد لها، وانتفضت لهذه الفكرة.

زمجر قائلاً: «هل لك أن تكفّي عن ذلك؟»

«أكفّ عن ماذا؟»

«عن التأوه والأنين وهذا العبوس وكأن ثمة شخصاً مات لتوه.»

«ولكنني اشعر فعلاً كأن شخصاً مات لتوّه.»

هدر ريتشارد يقول: اشعر احياناً بأنني أريد أن الوي عنقك، يا إيما.»

ردت عليه بحدة: «آه، شعور مشترك بيننا.» وسرت البهجة في كيانها. وانتابها شعور جنوني، للحظة، وكأنهما عادا إلى تلك المشاجرات الحادة الصاخبة التي كانت كثيرة أثناء حياتهما الزوجية القصيرة. واكتسحتها موجة من الحنين، ليكسو، بعد ذلك، وجهها البرود والجمود، ان مشكلاتهما الحالية لن تكون أبداً بسهولة تلك المشاجرات التافهة...

ألقى ريتشارد عليها نظرة حادة، عاد بعدها ينظر إلى الطريق بعينين عنيفتين وفك متوتر، ثم قال ببطء: «تعلمين انني لا اخطط لارغامك على شيء، ان كل ما يحدث بيننا سيكون برضائك التام.»

فقالت شاعرة بغصة تكاد تمنعها عن النطق: «أحقاً؟»

«أحب أن أراك تسيرين على الجمر لأجلي، يا إيما.»

«اراهن على انك تريد هذا حقاً، ولكن هذا لن يحدث.»

فسكت. واستمر يقود السيارة بصمت إلى أن وصلا إلى قرية باتوبولان الظليلة، والتي كانت مركز النحت في الجزيرة. فأوقف ريتشارد السيارة في مكان ظليل معشوشب، ثم خرج منها ليستدير ويفتح الباب لها،

تجاهلت ببرود، يده الممدودة لمساعدتها، ترجلت من السيارة. فقال: «انني بحاجة إلى بعض اللوحات لأزين بها بيتي الجديد في فاوكلوز، ففكرت في انك ربما تحبين ان تساعديننني في اختيارها، وربما أيضاً بعض المقاعد الحجرية. أما زلت مولعة بالعناية بالحدائق؟»

أجابت: «كلا في الواقع، ليس لدي وقت لذلك.»

«هذا مؤسف، لقد كنت جعلت من شرفتنا في وولومولو شيئاً غير عادي.»

فهزتها الذكرى. طبخ عشوائي... حرق الثياب عند كيها... ولكنها كانت ماهرة في شيء واحد على الأقل ولو انه كان عديم الفائدة، وهو مهارتها في زرع النباتات، وأثر فيها كون ريتشارد ما زال يتذكر ذلك بعد كل ما مضى من زمن، إنما آلمها في الصميم أيضاً. أليس الأمر سخيفاً، بالنسبة إليهما، ان يكونا متزوجين ومع ذلك لا يعرف الواحد منهما عن حياة الآخر سوى القليل جداً؟ حتى انها لا تعرف شيئاً عن تلك الفتاة الغامضة التي ربما كان ريتشارد يخطط للزواج منها، أليس من الأفضل ان تتخلى إيما عن الإدعاء بأن الأمور قد تصلح بينهما، ثم تقدم دعوى طلاق في أقرب وقت ممكن؟ ولكن شعوراً بالوحشة اكتنف نفسها لهذه الفكرة، كما غام وجهها.

سألها ريتشارد: «ما الذي حدث؟»

أجابت بتثاقل: «كنت افكر لتوي بأن علينا أن نُطَلِّقْ.»

وعندما اصبحا داخل المبنى، شعرت بعينيه تتبعانها أثناء طوافها متفرجة على اللوحات. كان الجو حاراً خانقاً بالغبار ويملأه ضجيج مطارق العمال، وهكذا شعرت بشيء

من الراحة عندما اقترب منهما، رجل يرتدي وزرة بنية وقميصاً رمادياً: «أية خدمة، يا سيدي؟»

«أنا وزوجتي نريد أن نرى بعض اللوحات والمقاعد الحجرية للحديقة.»

قادهما إلى فناء ظليل يحيط به سور منيع من الحجر المنحوت. سارت إيما بينها بسرعة شاعرة بالسرور بالرغم عنها، أما كان شيئاً ساراً لو انها، وريتشارد، كانا يخططان حقاً لانشاء حديقة يستعملانها بقية حياتهما؟ حديقة تذكرهما بتلك الأوقات السعيدة التي أمضياها في هذه الجزيرة الصغيرة الرائعة الواقعة تحت خط الإستواء مباشرة؟ وحدثت نفسها بأنها حمقاء حقاً.

«ما الذي يعجبك، يا إيما؟»

«انها لا تهمني، فمن غير المحتمل ان أراها طويلاً، على كل حال. اختر انت ما يروقك.»

عبس قليلاً وهو يشير إلى عدة لوحات ومقاعد للحديقة، هذا إلى بعض ألواح الجدران المنحوتة، ثم دخل إلى المكتب مع صاحب المكان لكي يتحدثا في أمور الدفع والشحن. وعندما أصبحت إيما وحدها، مرت بيدها على أحد الجدران الحجرية المتفتتة المكسوة بالطحالب وتنهدت، لقد ابتدأت تشعر بأنها أصبحت سيئة الطباع عديمة التهذيب إلى درجة مفزعة، وقد أقلقها هذا الشعور، ومع أن ريتشارد هو الذي ضيّق عليها الخناق بكل مهارة ما جعل طبعها سيئاً بهذا الشكل، إلا أن هذا لم يرض طبعها، حتى ان ضغط العمل الذي كان يستنزف قواها ويسبب لها القلق لم يجعل اعصابها بهذا الحد من التوتر، مع كل شخص

تقابله، وقبل قليل كانت تتساءل عما إذا كانت اساءت إلى مشاعر صاحب المكان بعدم اكتراثها بعمله، ودفعها الشعور بالذنب، إلى المكتب بعد ان كانت المعاملة قد انتهت لتوها. فقالت تخاطب العامل وهي تبتسم له: «اشكرك جداً لهذه اللوحات. انها رائعة حقاً. وسيسعدني جداً ان اضعها في حديقتي.»

أجاب الرجل: «أهلاً بك، ذلك من دواعي سروري.»

وعندما عادت مع ريتشارد إلى السيارة، ألقى عليها نظرة متفحصة يشوبها شيء من الدهشة، ولكنه لم يأت على ذكر تغير سلوكها هذا، وبدلاً من ذلك سألها: «اتظنين انك ستسرين بتناول العشاء عند شاطىء كوتا بيتش هذا المساء؟ ان بإمكاننا بعد ذلك العودة إلى بونا بعد الغروب.»

أجابت بحرص: «لا بأس، سيكون ذلك حسناً.» وكان فعلاً حسناً، كانا وصلا الساحل الغربي من الجزيرة في الوقت المناسب للتفرج على غروب الشمس عند تاناه لوت، كان مكاناً جميلاً على الجزيرة الصخرية على بعد مائة ميل من الساحل تقريباً، وكانت كرة الشمس الملتهبة، عند وصولهما، على وشك الغوص في المحيط المتألق، وقريباً من الشاطىء، كانت الأمواج تثور ثم تتحطم على الصخور محدثة هديراً عالياً، ولكن الوقت لم يسمح لإيما وريتشارد بالاستمتاع طويلاً بهذا المشهد إذ سرعان ما وجدا نفسيهما محاطين بحشد من صغار البائعين بأصواتهم الحادة العالية. كان ثمة فتيات صغيرات ذوات أعين متألقة وابتسامات فاتنة وقد سقطت اسنانهن الأمامية، اخذن يتشبثن بثوب إيما وهن يلوّحن ببضائعهن، وكذلك

صبية لا يكبرونهن كثيراً، كانوا يعرضون مثلهن. وهم يتكلمون بكلام هو خليط من الانكليزية والاندونيسية، بينما يتقاذفون سلعهم في الهواء ويعودون لالتقاطها كما يفعل المهرجون، وهم يرددون: «اشتري هذا، اشتري هذا.»

وفي لحظات، كانت إيما، والتي كان قلبها أرق من أن يستطيع الرفض، كانت قد غمرت تماماً بالمشتريات، فمن ثوبين طويلين براقي الألوان، أحدهما قرمزي اللون والثاني ذهبي، مطرزين بخيوط فضية قد ألقيا حول كتفيها، إلى غطاء رأس مصنوع من الذهب الزائف، كما كانت ذراعاها مليئة بصناديق مزخرفة منحوتة، ومنحوتات عظيمة، ومراوح يد خشبية مشغولة بشرائط حمراء وصفراء. وانفجر ريتشارد ضاحكاً وهو يخرج محفظته ليدفع ثمن كل هذا، وقال: «من الأفضل ان ابعدك عن هذا المكان حيث أنه ما زال بإمكانك السير. كلا، لا نريد اكثر من هذا، شكراً لكم يا أولاد، انها بضائع ممتازة حقاً، ولكن اصبح لدينا ما يكفي.»

وتناول أحد الثوبين من إيما، وفتحه جاعلاً منه شبه كيس، ثم قال لها: «ضعي كل مشترياتك هنا وسأحمله أنا، وإلا ضاع منك نصفها.»

فأطاعته وهي تنظر إليه شاكرة. لقد أدهشها واقلقها ان تراه يدخل السوق مشاركاً بالشراء من كل قلبه. وعندما وصلا إلى السيارة، ووضع هو المشتريات في الصندوق، ابتسمت له مترددة وهي تقول: «ما كان لك ان تدفع ثمن كل هذا، ان لدي بعض النقود الأندونيسية، هذا إلى أنني كنت دوماً اظنك تكره أن اشتري أشياء لا احتاجها.»

قال بحدة: «لا تكوني سخيفة.»

فتح لها باب السيارة، ثم نَهَرَ الأولاد بوجه متجهم ليخيفهم، وليصعد بعد ذلك إلى مقعد القيادة وهو يقول لها: «انك تتحدثين عني وكأنني غول، يا إيما.»

«اني آسفة، لم اقصد أن...»

«اعلم ذلك. انني أدرك ما قصدته، ولكن لا تفكري بي كما كنت منذ تسع سنوات. لقد كان عليّ في ذلك الحين، كثير من ديون العمل مما كان يقلقني، وكنت أحاول ان اضمن مستقبلنا بقدر الإمكان. لم يكن في نيتي قط أن أفسد عليك سرورك البريء بشراء أشياء جميلة. انني آسف إذا كنت فعلت ذلك.»

قالت بصوت خافت: «لم يعد هذا مهما الآن.» ولكنه كان مهماً في الواقع، فقد كان تأثير ذلك ما يزال ممتداً سنوات بعده، وذلك ككل شيء آخر في زواجهما. وضغطت جبينها باصابعها، وتنهدت، لقد كانت غاية في الإسراف في بداية زواجهما. انها تدرك ذلك الآن، فقد كانت نشأت ابنة وحيدة مدللة ولم يكن يخطر ببالها مطلقاً ألاّ تخرج إلى السوق لتبتاع أي شيء يعجبها، كما انه لم يخطر لها مطلقاً أنه ربما ليس في طاقة ريتشارد أن يوفر لها ما تريد شراءه.

قالت: «وأنا آسفة أيضاً، لم تكن لديّ فكرة عن قيمة النقود، حينذاك. لا بد أنني جعلت الأمور صعبة بالنسبة اليك.»

ألقى عليها نظرة غريبة، وقال: «كنت أظنك حينذاك، تستحقين ان اتحمل لأجلك الصعوبات.»

لم يتحدثا بعد ذلك إلى أن وصلا إلى شاطىء كوتا بيتش،

عند ذلك اقتصر حديثهما على الطعام. فسألها: «ما هو نوع وجبة الطعام التي تحبين تناولها. يابانية، مكسيكية، ألمانية، صينية؟»

انفجرت إيما ضاحكة، وصاحت تقول: «ولكن من المفروض اننا في اندونيسيا.»

«هذا صحيح، ولكنك لا تدركين ذلك في كوتا. هيا، قولي ماذا تريدين؟»

فصاحت قائلة، محاولة طلب اكثر الأمور استحالة: «أريد طعاماً سويسرياً.»

في خلال ربع ساعة، كانا جالسين بكل راحة في غرفة خشبية منفردين، يلتهمان مختلف انواع الأطعمة السويسرية من لحوم وسلطات، بينما كان شريط تسجيل يبث موسيقى سويسرية محلية. ودهشت إيما وهي تجد نفسها تسترخي باسمة وهي تنظر في عيني ريتشارد، وقالت عندما وصلت القهوة بالقشدة: «يا للغرابة، لقد اشعرني هذا بحنين بالغ إلى سويسرا.»

سألها: «هذا صحيح، لقد كنت تعلمت في مدرسة داخلية في سويسرا، أليس كذلك؟»

أومأت بالإيجاب فسألها: «هل احببت وجودك هناك؟ انك لم تخبريني كثيراً عن ذلك.»

«لقد برح بي الحنين إلى بلدي، في البداية، وكنت توسلت إلى أبي لكي لا يرسلني، ولكنه لم يستمع إليّ، كنت في الثانية عشرة من عمري فقط، فكرهت الإبتعاد عن الناس الذين كنت أحبهم.»

قال بصوت غريب: «الناس الذين كنت تحبينهم؟ من تعنين بذلك؟»

فبسطت يديها تقول: «آه، انك تعرف انه أبي.» وعضت شفتيها، «أظن هذا فقط، في الواقع، ليس هناك أحد آخر، الا إذا وضعنا في الحسبان الآنسة ماتي.»

ردد كلامها بلهجة ذات معنى: «ليس هناك أحد آخر. وهذا هو الوضع الذي كان أبوك يريد لك الاحتفاظ به، أليس كذلك؟ أراهن على أن ذلك هو السبب في انه ارسلك إلى مدرسة داخلية في الطرف الآخر من العالم، يا إيما، حتى ولو امكنك اتخاذ اصدقاء، فلن يكون بإمكانك الاحتفاظ بهم عندما تعودين إلى بلدك، كان يريدك كلياً لنفسه فقط كأميرة صغيرة مسجونة في برج.»

فقالت مستنكرة: «ما اسخف هذا الكلام.»

رد عليها متحدياً: «احقاً؟ اتعلمين يا إيما، انني عندما قابلتك لأول مرة، لم استطع أن أنسى أي حياة منفردة منعزلة تعيشينها؟ لاعمل، لا اصدقاء، لا شيء سوى ذلك البناء القديم البشع المسمى بالمنزل؟ لا رفيق لك فيه سوى والدك هذا إذا امكنه توفير وقت خارج شؤون العمل. كانت تلك حياة غير طبيعية مطلقاً بالنسبة إلى فتاة شابة، شعرت بغاية الأسى لأجلك.»

سألته: «آه، هل هذا هو السبب الذي جعلك تتزوجني؟ لأنك شعرت بالأسى لأجلي؟»

«تقريباً، من المؤكد أنني ما كنت لأتزوجك، عند ذاك، لو لم افكر في ان حياتك المنزلية كانت سيئة على نحو خطير.»

شعرت إيما وكأن شخصاً لكمها في معدتها، كانت تفكر دوماً في أن ريتشارد كان تزوجها لأنه أحبها، رغم ان

الأمور تغيرت، بعد ذلك، بشكل مفزع. أتراه يخبرها الآن بأن زواجه منها لم يكن الا بداعي الشفقة؟

ردت عليه بحدة: «اشكرك كثيراً. ان اشفاقك عليّ كان حقاً لطفاً منك.»

فأمسك بمعصمها قائلاً: «لا تكوني سخيفة، يا إيما، كان هنالك الكثير من المشاعر، فأنت تعلمين جيداً انني لم اتزوجك بداعي الشفقة فقط، لقد تزوجتك لأنني احببتك، ولكن لو كانت الأمور بينك وبين أبيك على غير ما كانت عليه، لما استعجلت في هذا الزواج، فقد كنت ما تزالين في التاسعة عشرة في ذلك الحين، كان عليك ان تمضي وقتاً اطول قبل الزواج، لكي تكوني واثقة من عواطفك نحوي، وربما كان زواجي منك أنانية مني، ولكنني كنت أرى بوضوح ما الذي سيحصل لو لم أفعل. فأبوك سيشدّد من سيطرته عليك بشكل يجعل من المستحيل عليك أن تجدي فرصة تقومين فيها باختيار حقيقي لحياتك مرة أخرى. سيكون عليك ان تتزوجي أي شخص يختاره هو لك والذي قد يكون وغداً طامعاً في ثروتك ولا يهتم بك مطلقاً. شخص مثيل لوالدك.»

حدّقت فيه إيما وقد انهالت عليها المشاعر كالرصاص... أولاً، كان شعوراً بالارتياح عندما أكد لها ريتشارد أنه تزوجها نتيجة الحب، ثم تبع ذلك الغضب والذعر لتهجمه ذاك على أبيها، وشعرت لتضارب هذه المشاعر بألم واضطراب عميقين، فقالت محتجة: «انك ظالم تماماً، فأنا لم أكن تحت سيطرة أبي، وعلى كل حال، فقد كان يحبني.»

أجابها عابساً: «ربما كان يحبك بطريقته الخاصة

الملتوية، ومع هذا لا أظن شخصاً غيرك يقبل بأن يسمي شعوره ذاك، حباً. كان كل ما يبغيه هو السيطرة، يا إيما، ان يسيطر على كل دقائق حياتك، فيعاملك كدمية يحركها كما يشاء، ويريد لهذه السيطرة ان تشمل ليس فقط المدرسة التي أرسلك اليها، والأصدقاء الذين حصلت عليهم، والملابس التي ترتدين، الوظيفة التي تتخذين أو لا تتخذين، ولكن حتى الرجل الذي تتزوجين.»

فقالت: «لا تكن سخيفاً، ما كان أبي ليحاول قط ان يخبرني عمن ينبغي عليّ أن أتزوجه.» وإذا بها تتردد. هل هذا صحيح؟ ألم يبذل جهده محاولاً ان يدفع نايجل ويلنغس نحوها؟ ثم ألم تثر ثائرته غضباً عندما اعلنت عن رغبتها في الزواج من ريتشارد؟ ولكن، كلا، كان هذا تفكيراً سخيفاً.

اصر ريتشارد على رأيه قائلاً: «بل كان سيفعل ذلك. لقد كان يغلي من شدة الغضب عندما تزوجنا وانت تعلمين هذا.»

«كان ذلك فقط لأنه كان يظنك طامعاً في ثروتي، وفيما بعد أخذ يتقرب إلينا.»

«انه لم يفعل ذلك. كان هذا جزءاً من دهائه الوضيع. وقد خدعنا بذلك، نحن الاثنين، يا إيما، فهو فقط تظاهر بحبه لي وذلك لكي يتمكن من تحطيمي بسهولة اكبر.»

أصرت على قولها: «هذا غير صحيح، حتى بعد أن تركتني أنت، أراد هو أن تعود الأمور فتسقيم بيني وبينك، وقد بذل جهده في سبيل ذلك.»

فقال هازئاً: «آه، أحقاً فعل؟ لا يمكنني أن أقول انني لاحظت ذلك.»

ففكرت إيما بمرارة في الرسالة التي كانت عهدت بها إلى والدها، الرسالة التي توسلت فيها إلى ريتشارد ليعود إليها ليسويا من خلافاتهما، وشعرت بطعنة ألم تخترق أعماقها لدى هذه الذكرى.

قالت: «آه، وما أهمية ذلك الآن؟ لقد رحل والدي، وزواجنا قد تحطم على الصخور، يا ريتشارد، وذلك منذ سنوات، وأنت لن تغير شيئاً من وراء التنقيب في الماضي. على كل حال، أليس من الأفضل أن نعود إلى المنزل الآن؟»

www.elromancia.com

الفصل الرابع

في الأيام القليلة التالية، قامت هدنة مضطربة بين ريتشارد وإيما. كانت إيما تشعر بالقلق البالغ، لا تدري ما الذي سيحدث في أية لحظة. ففي النهار، خصوصاً بحضور أناس آخرين، كانت تتصرف وكأنهما في شهر العسل حقاً. فالحديث المرح الودود، والاستعداد على الدوام لمرافقته في نزهات قصيرة، والجو الباسم حولها جعلها وكأنها بغاية الاستمتاع بوقتها. ولكنها ما أن يحل الليل، حتى يتغير الأمر. كل خطوة منه، كل نظرة مفاجئة تشعرها بالعصبية. كانت ما تزال نصف خائفة، نصف متشوقة إلى اللحظة التي يكمل بها ريتشارد البند النهائي من الاتفاقية القائمة بينهما. وعلى كل حال، كان ذلك قبل انتهاء اجازتهما بثلاثة أيام، وكانت غير مستعدة على الاطلاق لاعلانه القاسي هذا. كانا قد أنهيا لتوهما تناول طعام الافطار على الشرفة، عندما نهض واقفاً وهو يقول وفي عينيه نظرة ذات معنى: «أرى أن تحزمي بعض الملابس لقضاء ليلة في الخارج. أريد أن أذهب إلى بينيلوكان وأظن ليس بالامكان التفرج عليها في نهار واحد».

فقالت بذعر: «بينيلوكان؟ ولماذا؟»

«لأنه مكان رائع الجمال، ومن المخجل أن نترك بالي دون أن نزوره. هيا بنا نذهب قبل أن تزداد حرارة الجوّ.»

كانت المسافة لا تبعد أكثر من سبعين كيلومتراً من سانور،

ولكن الرحلة استغرقت اكثر من ساعتين. كانت الطرق تحتشد بكل ما يتصوره المرء من أنواع العربات والمشاة، من عربات الخيل إلى اسراب البط، وكل نوع منها يسير على نظام مستقل بنفسه. وكان ريتشارد لا يفتأ يضغط على بوق السيارة، سائراً ببطء السلحفاة دائراً بصبر حول النسوة اللاتي يحملن أمتعة على رؤوسهن ويعتبرن أن وسط الطريق هو المكان المناسب لتبادل الأحاديث والسير. على الأقل كانت هذه فرصة مناسبة لإيما لكي تفكر بحرية، ولكنها لم تجد أي راحة في هذه الأفكار. لم تكن تريد الذهاب إلى بينيلوكان مع ريتشارد. فالمكان حافل بالذكريات الغالية التي لم تكن تستطيع احتمالها.

لقد توهج وجهها لمجرد التفكير في تلك الرحلة التي تسلقا فيها جبل باتور معاً أثناء شهر العسل ووقفا على حافة البركان الخامد الذي تتصاعد منه الأبخرة، وهما يتعاهدان على حب بينهما حتى آخر العمر.

التوت شفتاها الآن بمرارة عند هذه الذكرى. يا لها من مزحة في ذلك الحين. ولكن، لماذا يحرص ريتشارد على جرّها إلى هناك؟ أهو نوع من المزاح السادي القاسي ما دفعه إلى هذه الرحلة؟ وهل هو مصمم على معاقبتها واذلالها بكل قسوة وذلك في مكان سبق وكانا فيه في منتهى السعادة؟ وهنا بدا لها أن ليس ثمة تفسير آخر لكل هذا.

اثناء صعود السيارة التلال، ابتدأ الجو الحار يميل إلى البرودة. وعندما توقفا على بعد عشرة كيلو مترات من البحيرة لكي يرتاحا قليلاً، كان الهواء قد أصبح طلقاً نقياً. كان موظفو الفندق قد أعطوهما رزمة من شطائر الدجاج

وسلة من الفاكهة الاستوائية والمياه الباردة وذلك لكي يتمكنا من تناول الطعام بجانب الطريق، وكانت أوراق شجيرات الخيزران تتمايل مع النسيم مرسلة ظلالاً متراقصة على الحشائش الخضراء الكثيفة. كان يتناهى إلى مسامعهما، من مكان ما، صوت مياه جارية ثم صوت مفاجيء لرفيف أجنحة طيور فوق رأسيهما، محدثة أصواتاً غريبة أشبه بقرع أجراس بعيدة. فنظرت إيما إلى أعلى بحدة، وهتفت: «ما أغرب هذا! ظننت منذ لحظات، أنني سمعت قرع أجراس.»

فقال باسماً: «إنك سمعت ذلك فعلاً، إنها فرقة موسيقى طيور هذا البلد. ذلك أن المواطنين هنا يعلقون أجراساً ومزامير صغيرة حول أعناق اليمام ليتمكنوا بذلك من سماع موسيقاها عند طيرانها.»

فقالت إيما: «يا لها من فكرة غريبة جميلة، ولكن كيف عرفت كل هذا، يا ريتشارد؟ أنا لا اتذكر انني سمعت مثل هذا عندما كنا هنا في المرة الماضية.»

فألقى عليها نظرة غريبة. نظرة طويلة قاسية ثاقبة وهو يقول: «هذا صحيح. ولكنني أعود إلى بالي مرة كل عام منذ ذلك الحين.»

انتابها شعور بالغ بالذهول، وبشيء آخر... شعور بأنها قد طُعنت بشكل ما... تماماً كما لو أن شخصاً اخبرها بأنه يقتحم منزلها ويفتش فيه مرة كل عام. كان لديها سبب لا تستطيع إدراك كنهه يجعلها تشعر بأن ماضيهما قد اقفل عليه في مكان امين ولا يمكن المساس به. وبالنسبة إليها، كانت ذكريات بالي متصلة بريتشارد، ما لا يدع لها طاقة على

احتمال الألم الذي سيتملكها إذا هي عادت وحدها إلى هنا عاماً بعد عام لمجرد الاستمتاع بقضاء إجازاتها. فلماذا كان ريتشارد يأتي إذن؟ هل لأنه لم يكن من الحساسية بحيث يفكر فيها على الاطلاق؟ أم أنه... واسرع تنفسها، وهي تزدرد طعامها بعصبية... هل كانت ذكرى الأيام التي كانا امضياها معاً اغلى على ريتشارد من أن يتخلى عنها؟ وفجأة، شعرت بأن عليها أن تعلم الحقيقة، فسألته مازحة بصوت جعله الإرتباك غير طبيعي: «ولماذا كنت تحضر إلى هنا؟ اظن ان ذكرى شهر عسلنا تكفي لكي تبعدك عن المكان بقية الحياة.»

قابل نظراتها ببرود، ثم هز كتفيه قليلاً وأجابها قائلاً بعدم اكتراث: «هذا صحيح، ولكن بالي مكان رائع الجمال. فمن السخافة المطلقة ان أدع بعض الذكريات السيئة تفسدها عليّ. وبعد، فإن شهر عسلنا لم يكن بكل تلك الأهمية، أليس كذلك؟ هذا إذا قارنته ببقية حياتنا.»

ردت عيه بفتور زائف: «كلا، أظنه لم يكن بكل تلك الأهمية أبداً.»

شربت زجاجة من عصير الليمون وأكلت شطيرتي دجاج وموزة محاولة منها اخفاء استيائها. ولكنها في الأعماق كان الألم والحزن ككتلة من رصاص تثقل قلبها. ليس بتلك الأهمية؟ انها مازالت حتى الآن تعتقد بأن الزواج من ريتشارد هو أهم شيء قامت به في حياتها، وحتى رغم كل الغضب والألم اللذين سببهما لها، شعرت بالألم والاهانة وهي ترى شهر عسلهما يهمل جانباً، كأنه شيء دون معنى، ليس بتلك الأهمية؟ وتملكتها المرارة، هذا صحيح، شكراً يا ريتشارد

لتذكيرك لي كم أنت خالٍ من الإحساس، ان هذا سيجعل اغلاق قلبي دونك اكثر سهولة...

قالت له ببرود: «ليس ثمة فائدة كبيرة من التوقف في بينيلوكان لتناول الغداء، اليس كذلك؟ لقد تذكرت أن المكان كئيب وخالٍ من المناظر، على كل حال، فهذه الشطائر قد أخمدت شهيتي.»

فهز كتفيه قائلاً: «كما تشائين، ولكن فلنتابع طريقنا على كل حال.»

قال ريتشارد وهو يستدير ليدخل إلى مكان وقوف السيارات التابع للمقهى في بينيلوكان: «حسناً، حتى إذا لم تكن لديك رغبة لتناول طعام الغداء، فأنا بحاجة إلى فنجان قهوة. هل ستأتين معي أم لا؟»

عضت شفتيها وهي تسير معه متجهة نحو مائدة أمام المقهى تشرف على المناظر المنتشرة أسفل.

«نريد فنجاني قهوة من فضلك، أحدهما دون حليب أو سكر، والآخر مع الحليب دون سكر.»

حدّق بهدوء إلى البحيرة الزرقاء المنبسطة أسفلهما، ثم ابتسم لها قائلاً بسرور: «أليس المنظر جميلاً؟»

حدقت فيه إيما مذهولة حين ابتدأت الحقيقة تتضح في ذهنها ببطء... إنه لم يحضرها إلى هنا لمجرد التفنن في القسوة عليها، أبداً. كلا، لم يكن ريتشارد يريد أن يتفرج عليها متسلياً وهو يراها تتعذب إزاء الذكريات، لا شيء من هذا. كل ما في الأمر هو أنه قد نسي الحادث كلياً. نسي... ما الذي قاله لها... وما شعر به... يا له من وغد قاسي عديم الشعور والقلب والوفاء.

قالت بجفاء: «نعم إنه جميل اتظن ان بإمكاني ان اطلب أن تكون قهوتي أثقل من العادة؟»

بعد عشرين دقيقة، تابعا طريقهما ليهبطا الطريق الذي أخذ يتعرج إلى أن وصلا إلى ضفاف البحيرة، ثم تابعا السير إلى أن وصلا إلى إيرباناس، وهناك أوقف ريتشارد سيارته خارج الفندق نفسه الذي كانا أقاما فيه منذ تسع سنوات، ولكن إيما انتبهت الآن إلى ما يقصد، فسيطرت على ردود الفعل عندها بكل حزم، لم تكن تريد مطلقاً ان يبدو على وجهها أقل لمحة حنين أو ندم. وبدلاً من ذلك أظهرت ابتسامة اهتمام وهما يدخلان الفندق ويوقعان باسميهما، وقادتهما فتاة مراهقة دائمة الابتسام إلى غرفة بسيطة لا تحوي سوى الضروري من الأثاث.

ألقى ريتشارد بالحقيبتين على الأرض، ثم سار نحو النافذة يتملى من المنظر المحيط بهما، حيث البحيرة الزرقاء والأشجار المزهرة والحشائش الخضراء.

قال يخاطبها: «ما رأيك في نزهة قصيرة قبل العشاء؟»

أجابت: «لابأس.»

كانت نزهة في منتهى الجمال على ضفاف البحيرة، واستحال تظاهرها بضبط الأعصاب إلى استمتاع حقيقي. كانت تشعر وكأنها لم تأت إلى هنا إلا للمرح، ولا بد انهما سارا اكثر من عشرة كيلومترات صامتين في اكثر الأحيان، وكانا، احياناً، يعلقان على ما شاهداه من مناظر حولهما. وعندما استدارا عائدين إلى الفندق، كانت إيما تشعر بالإسترخاء والإنهاك.

كانت احياناً تلقي بنظرة خجلى إلى ريتشارد بجانبها.

www.elromancia.com

على كل حال، مهما حاولت ان تقنع نفسها بأنها تكرهه، فليس بإمكانها ان تكبح شعورها بالاعجاب به وصوت ضحكته العميقة فوق المياه الساكنة.

بعد نصف ساعة جلسا في الخارج بانتظار عشائهما. كانت المصابيح البراقة الألوان مصطفة على حوافي المصطبة، كما كان البدر يعلو فوق البحيرة، وفي مكان ما، كانت تتعالى انغام الموسيقى من حيث كان يقام الرقص المحلي الليلي، والذي قرر ريتشارد وإيما ألاّ يحضراه. كان الهواء ساكناً يميل إلى البرودة ومشبعاً بأريج الزهور.

قال ريتشارد بجفاء: «لا يبدو عليك الارتياح. هل السبب شركة بريرو؟»

فقالت بسرعة: «أنا شاكرة جداً لكون الشركة ستستمر في العمل، فقد كنت قلقة جداً بشأن الموظفين فيها والذين كانوا سيصبحون عاطلين عن العمل، إنما أحياناً، يا ريتشارد، اتمنى لو لم آت قط إلى هذا العمل المتعب. لا يمكنك ان تتصور أي عبء ثقيل هو.»

رد عليها عابساً: «آه، نعم. يمكنني تصور ذلك. لقد أمضيت أنا في العمل قرابة العشرين عاماً الآن، تذكري، وأنا أعلم أنه ليس قطعة حلوى، ولكن عليّ أن اسلم الشركة إليك، يا إيما، فقد قمت بعملك في الشركة بشكل ممتاز، وما كان ذلك سهلاً عليك وأنت تستلمينه عندما كنت في الحادية والعشرين.»

قالت وقد سرها تفهمه: «كلا، لم يكن سهلاً، فقد كنت تلقيت ثقافة مكلّفة، وعديمة الفائدة، فكنت اعرف عن تنسيق الزهور اكثر مما اعرف عن أرصدة الحسابات، وفجأة، إذا بي أصبح

المالكة والمديرة للشركة وهو افظع شيء حدث لي في حياتي، كما ان قسماً من مجموعة المقاولين في الشركة لم يعجبهم أن تكون امرأة رئيستهم، لقد كان الخوف والقلق يتملكانني وأنا اتعامل مع كل أولئك الرجال الغلاظ.»

انفجر ريتشارد بضحكة مفاجئة وقال: «حسناً، لم يظهر عليك أي قلق أو خوف وأنت تتعاملين مع رجال غلاظ عندما تعرفت عليّ، فأنا ما زلت أتذكر خروجك إلى الشرفة الخلفية من منزل والدك حاملة صينية عليها اقداح العصير المثلج وكأنك اشتغلت عشرين عاماً نادلة في مقهى. واتذكر انني قلت لنفسي، هذه فتاة واحدة من مليون. ليست فقط رائعة الشكل، ولكنها قارئة أفكار أيضاً. لم يكن يبدو عليك القلق في ذلك الحين.»

فأطلقت إيما ضحكة مضطربة لهذه الذكرى وأجابت: «هذا كل ما تعرفه. لقد كان عليّ ان استجمع شجاعتي لكي اخرج واواجهكم جميعاً. ولكنني شعرت بالأسى لأجلك وانت تعمل في ذلك الجو الحار هذا بالإضافة إلى أنك ومجموعتك، كنتم مختلفين عن الكثير من الرجال الذين قابلتهم بعد ذلك. كنت مهذباً تماماً معي.»

وعادت أفكارها إلى الماضي لتتذكر ريتشارد، طويل القامة أشقر الشعر، وذا بشرة لوحتها الشمس ووسامة غير عادية، وكان يشرف على مجموعة من عمال يبنون ملحقاً لمنزل أبيها، وعندما أدركها العطف عليهم إذ يعملون في هذه الحرارة العالية، اخرجت إليهم صينية عليها انواع مختلفة من عصير الفواكه ليعيدها ريتشارد فيما بعد فارغة داخلاً بها من باب المطبخ، وخفق قلبها لرؤيته فلم تعرف،

لشدة ارتباكها، إلى أين تتجه ببصرها. وكأنما كان هو يشاركها الذكريات، فقد ابتسم كذلك، ابتسامة غريبة متأملة وهو يقول: «حسناً، ان تهذيبي لم ينفعك كثيراً مع أبيك، أليس كذلك؟ انني مازلت اذكر كيف جن جنونه عندما اكتشف انك توسخين يديك البيضاوين بتقديم عصير الفواكه إلى العمال.»

فاعترفت قائلة: «هذا صحيح، فهو لم يكن راضياً تماماً.» ولكنها انتفضت وهي تتذكر كيف ثارت ثائرة أبيها فاندفع في أنحاء المنزل يضرب بقبضته قطع الأثاث، صارخاً في وجهها وهو يذكرها بمركزها ومستقبلها وقذارة ألسنة العمال في الخارج، كل ذلك لأنها قدّمت إليهم شراباً بارداً في يوم حار، وعادت فسألته: «هل سمعت كل ذلك؟»

أجاب عابساً: «نعم. وقد اخذت أفكر في ما إذا كان الأفضل ان انهي العمل الذي بين يدي أو أدخل المنزل لألكمه على فكه للتحدث اليك بهذا الشكل، لقد كان شريراً عجوزاً، ولكنه لم يستطع أن يمنعك حيث تسللت خارجة معي إلى حفلة موسيقى في الأسبوع التالي، أليس كذلك؟»

ابتسمت وقد بدا عليها الشعور بالذنب، وقالت: «نعم. لقد تذكرت الآن. لقد كنت سمعتني اعزف، فدعوتني إلى حضور حفلة موسيقية في ساحة كريكيت الواسعة، ولم اصدق اذني عندما سمعتك تدعوني للذهاب معك.»

فمال ريتشارد في كرسيه إلى الخلف وابتسم قائلاً وهو يستعيد احداث الماضي: «نعم، أظن ان تلك كانت البداية. أو ربما كانت البداية هي تلك النزهة في مانلي بعد ذلك بأسبوع. اتذكرين؟»

توهج وجه إيما. نعم، كان هذا صحيحاً. ورمقته بخجل

مرة أخرى، ثم مدت يدها تضع اصابعها على يده قائلة برقة وهي تبتسم بغموض: «اشكرك.»

ضرب باصابعه حافة المائدة وهو يقول بصوت خشن: «حسناً، هذا يريك فقط أي رجل أحمق كنته، في ذلك الحين، أليس كذلك؟ فان احتفظ بك فتاة بريئة صغيرة، إلى ما بعد الزواج، كان اسوأ غلطة اقترفتها في حياتي. كان يجب أن ادرك ان كل ما كنت تريدينه مني كان الهرب من سيطرة أبيك. حسناً، لقد حفظت درسي. هذه المرة سأتعامل مع الأشياء كما كان يجب أن افعل في البدء، سأبقى معك فترة قصيرة، ثم بعد ذلك يكون الوداع.»

نظرت إيما إليه مذهولة، شاعرة وكأنه صفعها على وجهها... لم تكن تتوقع منه كل هذا الإحتقار. أما عن تقييمه المرّ للسبب الذي جعلها تتزوج منه، فقد جعلها من الغضب بحيث تمنت لو تصفعه. ولكنها، بدلاً من ذلك، أجابت بصوت بارد متهدج: «هذا يناسبني، يا عزيزي، ما عدا أن بإمكاني ان استغني عن العلاقة تلك. فأنا، شخصياً، لا أعود مطلقاً إلى حبيب كنت نبذته. ما الفائدة من ذلك بعد أن يزول التألق من العلاقة؟»

فصرف بأسنانه بصوت مسموع وهو ينظر إليها بعينين ملتهبتين، وللحظة، ظنت أنها قد تمادت في قولها ذاك، وانتابتها رعشة خوف مما عسى ان يفعل، ولكن لحسن الحظ جاءت النادلة في هذه اللحظة بالطعام.

كان الطعام مؤلفاً من دجاج بصلصة جوز الهند مع الخضر المسلوقة، يتبعه فاكهة استوائية، ولكن لم يكن يدور بينهما ذلك الحديث الذي ينسجم مع طعام كهذا، فقد تناول ريتشارد طعامه يكتنفه صمت خطير. وكان يستعمل الشوكة

والسكين وكأنهما سلاح فتاك، وعندما انهيا الطعام، بدلاً من مرافقتها في العودة إلى غرفتهما، وقف يعلن باقتضاب انه ذاهب ليتمشى. ومشى متجهاً إلى ضفاف البحيرة دون أن يلقي نظرة إلى الخلف، وخطواته الرياضية الواسعة تطوي الأرض طياً.

وحدثت إيما نفسها بأن هذا لا يهمها بشيء. وعادت إلى غرفتهما حيث تناولت بتحدٍ، كتاباً سميكاً أخذت تقرأ فيه باهتمام وكأن حياتها متوقفة عليه، وفي ثلث الساعة الأول، كانت من انشغال الذهن بحيث لم تستطع ان تميز ما إذا كان هذا الكتاب هو رواية جاسوسية مثيرة، أم بحث في علم النبات، ولكن شيئاً فشيئاً، ابتدأت تهتم بما تقرأ. وبعد فترة كانت نسيت كل ما يتعلق بريتشارد، واستغرقت في قراءة القصة إلى حد ادهشها أن تعلم، وهي تلقي نظرة على ساعتها، أن الوقت هو الواحدة صباحاً، وللحظة انتابها القلق مما إذا كان حدث شيء لريتشارد، ولكنها ما لبثت ان استعانت بالمنطق، محدثة نفسها بأنه ربما مازال يتمشى في الخارج مهدئاً بذلك من غضبه. ولكنها لن تلحق به محاولة اصلاح الأمور بينهما، فهي تعلم ان ذلك ان هو إلا قضية خاسرة.

ألقت بالكتاب إلى الأرض، وأطفأت النور ثم اغمضت عينيها، وسرعان ما لفتها أجنحة الليل المخملية لتستغرق في نوم عميق... وبعد ذلك بساعات، افاقت على ضوء المصباح القائم بجانب السرير لتجد ريتشارد يهزها. وحاولت ان تجد طريقها إلى الإنتباه التام من نومها، وهي تقول محتجة: «ماذا حدث؟ ماذا تريد؟»

«عليك ان تنهضي الآن، أريد أن اصل إلى فوهة البركان قبل أن تشتد حرارة الجو.»

جلست مترنحة وهي تنظر إلى ساعتها قائلة بتذمر: «ولكن الساعة هي الخامسة والنصف فقط.»

فأصر يقول بحزم: «هذا افضل وقت للشروع بالسير.»

بعد أن تناولا طعام الإفطار المؤلف من كعك الأرز والفاكهة، كانا في طريقهما صاعدين الطريق الذي يتجه من وسط القرية إلى الجبل، وعندما اجتازا القرية، أشرقت الشمس فجأة على التلال مغرقة المشهد بنورها المتألق، وتابعا طريقهما مجتازين أرضاً مغطاة بأشجار كثيفة في سفح الجبل، ثم اتجها نحو القمة. لقد اصبح الطريق الآن متربأ شديد الإنحدار وفي عدة أماكن كانت إيما تضطر إلى التمسك بأشجار الصنوبر الصغيرة التي تنمو بجانب الطريق لكي تحتفظ بتوازنها، ما جعل تنفسها يتثاقل متعباً. وبالرغم من نقاء الجو وبرودته، فقد أصبح لون قميصها الأخضر قاتماً كما كسا التراب ساقيها وتلطخ البنطال الذي ترتديه بالوحل، ولكنها لم تستطع ان تكتم شعوراً بالإنتعاش انتابها فجأة وهي تجر خطاها صاعدة خلف ريتشارد، لولا هذا التوتر الشديد السائد بينهما، لاستمتعت بكل لحظة من هذه الرحلة.

وعندما تفرع الطريق في النهاية، اتخذا الفرع الشمالي المتجه نحو النقطة السفلى من حافة الفوهة لتستقبلهما بالترحيب نظرات غلامين يبيعان المرطبات. فحملا عصير الليمون الغازي وتابعا الصعود نحو الحافة العليا من الفوهة، وكان الطريق قد أصبح هنا ضيقاً شديد الإنحدار،

فكان منظر الشلالات يبعث على الدوار، والأغوار مغطاة بالنباتات الخضراء الكثيفة. واكثر من مرة كان على ريتشارد ان يمسك بيدها يلاطفها لكي تتابع الصعود، حيث كانت تلقي بنظراتها الفزعة إلى البعد الساحق الذي يفصلهما عن الأرض أسفل، ولكن لطفه ذاك جافاً مجرداً من أي شعور شخصي ما جعلها دون شعور. لم يكن بينهما أي نظرات متبادلة، أي دفء أو ابتسامات خاصة مما كان أثناء شهر عسلهما. وعندما وصلا أخيراً إلى حافة فوهة البركان وقف ريتشارد بعيداً عنها مشبكاً ذراعيه على صدره، محدّقاً إلى قاع البركان وقد كسا وجهه الشرود لهذا المشهد أسفل.

في المرة الأولى التي قدمت فيها إيما إلى هذا المكان، شدها روعة المنظر، إنما الآن تملكها الضيق من جراء الصمت الموحش، والذي لم يكن يخترقه إلا انهيار الصخور احياناً بشكل مفزع داخل الفوهة، أو زعقة حزينة من طائر. وكانت حلقات من الأبخرة تتصاعد بسكون من أخاديد في الصخور بينما كان للهواء رائحة كبريتية نفاذة. في المرة الأولى التي كانت فيها هنا، اخبرها ريتشارد مرة بعد مرة، كم يعني له ان يجمعهما مكان غريب رائع مثل هذا المكان. اما الآن، فيبدو ان لا شيء يجمعهما سوى شعور عنيف مشترك بالكراهية، لقد وقف ريتشارد بعيداً عنها، يرمقها بنظرات جانبية متشككة وقد ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة غريبة... مرة، وبدا ان ليس ثمة فائدة من هذه الرحلة على الإطلاق وانفجرت تقول متبرمة: «ألا يمكننا الذهاب الآن؟»

هز كتفيه وأجاب بجفاء: «نعم، اظننا حققنا هدفنا من هذه الرحلة، فلنرجع.»

وفي طريق العودة، سلكا طريقاً مختلفاً، كان طريقاً اكثر انحداراً من الأول ما جعلها تحول انتباهها عن كل شيء عدا التركيز على خطواتها، خصوصاً بعد ان تجاهلها ريتشارد الآن كلياً، لقد انطلق إلى الأمام بطاقة غير معقولة، ملتفتاً إلى الخلف احياناً ليتأكد من انها مازالت في مجال الرؤية ليندفع بعد ذلك، هابطاً بسرعة منحدراً آخر من تلك التضاريس الطبيعية، وفي الوقت الذي وصلا فيه إلى الفندق، كانت إيما مرهقة قذرة سيئة المزاج إلى أقصى حد.

قالت بفتور وهي تدخل الحمام: «انني داخلة لأغتسل.» ثم صفقت الباب خلفها واقفلته بالمفتاح.

تأخرت في الحمام متعمدة، فغسلت شعرها حتى انها صبغت اظافرها ودلكت يديها بالكريم شاعرة بسرور خبيث في إرغام ريتشارد على الإنتظار. ولكنها عندما خرجت مرتدية ثوباً من القطن، وجدت ريتشارد يرمقها بنظرات ذات معنى.

الفصل الخامس

تمتم هامساً: «حسناً، هل تريدين مني أن أبتعد عنك؟»

تباً له، انها تلمس السخرية في صوته وهو يسألها ذلك، ولكنها لم تهتم. لم تهتم بشيء سوى بأن هذا الذي معها هو زوجها.

وعاد يكرر متحدياً: «اجيبيني. هل تريدين مني أن أبتعد عنك؟»

فقالت مصعوقة: «كلا. تباً لك، انك تعلم جيداً أنني لا أريدك أن تبتعد...»

تألق الفوز في عينيه. لشد ما تحبه. وكم كانت تعسة من دونه... ليته لا يتركها بعد الآن... لا يتركها أبداً... ودون وعي منها، افلتت من بين شفتيها كلمات لم تكن تحلم قط بأن تقولها له: «ريتشارد. أحبك. أحبك يا ريتشارد.»

فوجئت بتجاوبه إذ تمتم: «إيما... آه يا إيما.»

ابتسمت خفية وقد سرت في كيانها سعادة بالغة. صحيح أنه لم يخبرها بصراحة أنه يحبها، ولكن الأمل تألق في نفسها. يبدو أن اجتماعهما هذا قد غير كل شيء بشكل خارق وجعلها تشعر بأن كل الأمور ستصلح بينهما. وعندما استسلمت اخيراً إلى النوم، كان آخر ما فكرت فيه وملأها سعادة هو انهما سيمكثان معاً... سيمكثان معاً بقية حياتهما...

ولكن تفاؤل إيما كان قصير العمر، لقد افاقت في الصباح

يساورها إحساس بأن ثمة من يراقبها، ففتحت عينيها تغالب النعاس لترى ريتشارد جالساً على كرسي خيزراني بجانب السرير يحدق فيها وقد كسا وجهه تفكير عميق غير عادي، ووضع ذقنه على يده، فشعرت من الجمود في وضعه هذا وكأنه أمضى فيه ساعات، وانتابتها قشعريرة من يتوقع السوء فمدت يدها إليه تريد أن تطمئن، وابتدأت تقول: «عزيزي، ماذا حدث؟ هل...»

رد عليها بوحشية: «لا تضيعي ملاطفاتك الرخيصة هذه عليّ.» ووقف ثم سار مجتازاً الغرفة وهو يزمجر يخاطبها من فوق كتفه: «جهزي نفسك لأننا سنأخذ أول طائرة عائدين إلى استراليا.»

اندفعت إيما من سريرها، وقد اجتاحها الرعب، راكضة خلفه، ثم جذبته تديره ليواجهها وهي تهتف قائلة: «ريتشارد، ماذا حدث؟ كان كل شيء بيننا يسير بشكل حسن أمس. ظننتك أحببتني مرة أخرى.»

نظر إليها بازدراء جعلها تنكمش متراجعة، ثم قال بلهجة مليئة بالإحتقار: «لقد أخطأ ظنك. وكنت أفضل لو لم تذكري كلمة الحب بيننا مرة أخرى، يا إيما. فهي ليست إلا عملة رخيصة متداولة بالنسبة اليك، أليس كذلك؟ إنني متأكد من انك كنت تعترفين بنفس هذه الاعترافات الصغيرة لغيري، أليس هذا صحيحاً؟»

صرخت بذعر: «كلا، كلا يا ريتشارد، كيف امكنك ان تنطق بمثل هذه الأشياء الفظيعة؟»

أجاب بصوت أصبح الآن رقيقاً... نعومة تبطن وعيداً يتعذر معرفة كنهه، أجاب مهمهماً: «يمكنني ذلك بسهولة، يا

www.elromancia.com

إيما... بنفس السهولة التي تتشدقين فيها أمامي باعترافاتك الرخيصة الكاذبة عن الحب لي. ولكنني افضل الحقيقة الباردة النظيفة. وهي ان ما بيننا ليس حباً، انه ليس سوى...»

فانتفضت لكلامه وكأنه جلدها بالسوط. ثم، وبعينين متسعتين رعباً، تراجعت مبتعدة عنه وهي تهز رأسها ببطء وكأنها تجاهد لكي تفهم ما يعني. ثم قالت بصوت مختنق: «كلا، كلا ياريتشارد. ربما كانت هذه صفة ما جرى بيننا بالنسبة إليك انت ولكنها ليست كذلك بالنسبة إليّ.»

«انك وضيعة كاذبة.»

توهج وجهها غضباً ورفعت رأسها بكبرياء وهي تقول بتحدٍ: «إذا كان هذا هو ظنك بي، فاعفني إذن من هذه الاتفاقية السخيفة. لقد حصلت على ما تريد، وبرهنت على وجهة نظرك. والآن، دعني اذهب.»

وإذا بها تدرك، بشكل مبهم، ان ريتشارد كان يعاني من العذاب أسوأ مما كانت هي نفسها تعانيه. فقد كانت كل عضلة في وجهه وجسمه تنطق بالتوتر والعداء. كان تجهم متوعد يشوه ملامحه بينما كان يلهث وكأنه ركض شوطاً طويلاً. ولكنه، مع كل هذا، بقي متشبثاً، بعناد، بهدفه المشين ذاك إذ زمجر قائلاً: «كلا، لقد سبق وقلت ثلاثة أشهر، وستكون ثلاثة أشهر.»

شعرت إيما، وهي تتراجع بحافة السرير تصطدم بساقها، وفجأة لم تعد تحتمل اكثر من ذلك فجلست بارتباك، ورأت عيني ريتشارد، ما زالتا مسمرتين بنظرات متوحشة مما أزعجها، فاستقامت في جلستها ونظرت في

عينيه مباشرة، فكان ذلك بمثابة تلاحم سلاح مع خصم هدفه الوحيد طعنة يسددها إلى القلب. ولأول مرة تلمس إيما مقدار ما يشعر به ريتشارد نحوها من كراهية عنيفة جعلتها تشعر بالرعب، لماذا؟ لماذا يكرهها إلى هذا الحد؟ وكان أول ما خطر لها هو أن تجمع ثيابها وتفرّ عائدة إلى سيدني حيث تكون وحدها مع مشاعرها الثائرة المضطربة. ولكن، ما هي نتيجة ذلك؟ انها لم تعد، على كل حال، فتاة خجول في التاسعة عشرة من عمرها، وإنما سيدة أعمال قوية قد حنكتها معارك العمل الطويل والشاق، وقالت وهي تعتدل في جلستها: «لا بأس، ياريتشارد. لقد أوضحت تماماً ما تريد. والآن جاء دوري لأعلن ما أريد. انني لست وضيعة، انني زوجتك. ولكن إذا لم يكن في إمكانك أن تقدم لي الإحترام والحب الذي يتمشى مع هذا الوضع، فعلى الأقل هناك شيء آخر أطلبه منك.»

فزمجر يقول بارتياب: «وما هو؟»

أجابت وهي تبتسم له بمرارة: «التهذيب المتعارف عليه. سواء كنا وحدنا أم بين الناس، أن تعاملني من الآن فصاعداً بكل تهذيب وكأنني ضيفة محترمة، وإلا تركتك وذهبت سواء كان هناك اتفاق بيننا أم لم يكن. أتراني أوضحت ما أريد؟»

أجاب هازئاً: «أوضحت ذلك تماماً. لقد تغيرت كثيراً يا إيما منذ الزمن الذي كنت فيه فتاة مراهقة خجول. لا بد لي من القول أنني أجد صعوبة في عدم الاعجاب بك.»

قالت ببرود: «حاول ذلك، فأنا لا أريد اعجابك يا ريتشارد. أريد فقط سلوكاً جيداً عادياً. والآن، هل اتفقنا أم لا؟»

www.elromancia.com

رمقها بنظرة طويلة عنيفة هي مزيج من الكراهية والهزل، ثم على غير انتظار، مد إليها يده مصافحاً وهو يقول: «أظن ذلك.»

ومع هذا، فلم يكن ذلك نصراً كاملاً لها، حيث أن مفهوم ريتشارد عن التهذيب ومفهومها هي، كانا على طرفي نقيض. وفي طريقهما إلى المطار بقي صامتاً غير مستعد لتبادل الحديث، وكذلك أثناء الرحلة في الطائرة لم يظهر أي تحسن في مزاجه، وكلما حدثته إيما، كان اما يتجاهلها أو يجيبها بحدة وجفاء، وأخيراً دفعها احساسها بالمهانة والحنق، إلى إثارة مناقشة صعبة عما سيقومان به عند وصولهما إلى سيدني.

قالت: «اسمع، أظن من الأفضل ان استقل سيارة اجرة من المطار إلى منزلي بعد وصولنا، انني اعلم انك قلت ان علينا أن نمكث معاً ولكنني...»

ولم تكمل، إذ قاطعها بحدة: «لا تكوني سخيفة، انك ستأتين إلى منزلي حسب الاتفاق، ولا أريد مزيداً من الكلام بهذا الشأن مهما كان الحال، وقد سبق وتدبرت الأمر مع اماندا ان تنقل امتعتك إلى منزلي وتلاقينا بسيارة عند وصولنا.»

فتملكها خوف متعذر تفسيره، وسألته: «من هي اماندا هذه؟»

وعثرت إيما على جواب سؤالها ذاك عند وصولهما إلى مطار سيدني لتتقدم منهما امرأة شقراء طويلة القامة في حوالي الثلاثين من عمرها ترتدي ثوباً من الكتان بسيط الزي غالي الثمن بلون القشدة، تقدمت للقائهما وقد ارتسمت

على شفتيها ابتسامة ترحيب، وعن قرب، رأت إيما ان شعرها اقصر مما يجب ومتطرف في تسريحته وان عينيها الزرقاوين تطل منهما الفطنة والدهاء.

قالت بصوت منخفض أجش: «مرحبا يا ريتشارد، هل استمتعت بالرحلة؟»

أجاب دون اهتمام: «كانت حسنة جداً أماندا، لا اظنك تعرفين زوجتي إيما، إيما، هذه اماندا موريس... وهي محامية في شركتي.»

لاحظت إيما ان اماندا اجفلت قليلاً حين سمعت كلمة زوجتي، ولكنها ابتسمت بسرور، رغم ان الابتسامة تلك لم تصل إلى عينيها، «كيف حالك يا إيما؟»

فقالت إيما بعدم ارتياح: «مرحبا.»

كانت اماندا تبدو رشيقة نضرة مليئة بالحيوية وكان ثوبها المتقن التفصيل يظهر لون بشرتها الذي لوحته الشمس فبدا قاتم السمرة، كما كانت متبرجة بكل عناية، وبالمقابل، شعرت إيما فجأة بمبلغ ما تبدو عليه ملابسها من تجعد واتساخ من أثر السفر. كما انها لم تكن تشعر بنفسها صحيحة الجسم كذلك رغم ان ذلك قد يكون من آثار الرحلة الطويلة بالطائرة. وهكذا لم تحتج عندما استلمت اماندا، ببساطة، تنظيم كل شيء، وكان عليها ان تعترف بأن اماندا تملك الكفاءة التامة. وفي خلال خمس دقائق من تركهم مبنى المطار الرئيسي، كانوا يستقلون سيارة ليموزين بيضاء، بينما امتعتهما في الصندوق.

قالت اماندا تخاطبها وهي تفتح الباب الخلفي لها: «ربما ستكونين اكثر ارتياحاً في المقعد الخلفي، يا إيما،

www.elromancia.com

إذ المكان اكثر اتساعاً هناك، كما أن علي ان اتحدث مع ريتشارد عن شؤون العمل اثناء الطريق.»

كان كلامها منطقياً تماماً، ولكن لم يكن في وسع إيما ان تتجنب شعوراً بالإنزعاج تملكها إذ يلقى بها في الخلف كقطعة من الأمتعة، بينما صعد ريتشارد إلى المقعد الأمامي بجانب امانداء وقادت المرأة الشابة السيارة بسرعة ومهارة، وبالقيام بالحديث، اظهرت مقدرة على القيام بأمرين مكتملين، في وقت واحد. وبينما كانوا يجتازون شوارع سيدني، كان الحديث بين ريتشارد وامانداء يدوّر حول مركز التسويق الجديد في الضواحي، وعن عقبة في طريق تبادل العقود، وامكانية الحاجة إلى الاحتكام للقضاء، واراحت إيما ظهرها إلى الخلف وهي ترتجف، كانت مؤهلة تماماً للمشاركة في مثل هذه الأحاديث وهي التي سبق وشاركت في اجتماعات عمل لا تحصى تبحث في مثل هذه المواضيع، ولكنها، ببساطة، لا تريد ان تزعج نفسها. ففي هذه اللحظة كان آخر ما تفكر فيه هو شؤون العمل، أما ما كان يقلقها ويثير اعصابها فهو علاقتها بريتشارد.

كانت، في اعماقها، ما زالت مقتنعة بعناد، ان شعلة الحب التي كانت بينهما ما زالت متقدة فيهما معاً، فقد تأكدت من ذلك في اليوم الأخير في بالي أنه مازال يكن لها نفس الحب القديم العنيف، صحيح أنه لم يخبرها بذلك، ولكن متى كان ريتشارد يفعل ذلك؟ فقد كان نادراً ما يعترف بحبه لها إلا نادراً. ولكنه كان يفصح عن ذلك بطرق أخرى غير الكلمات المجردة وما رأته فيه ذلك اليوم من عواطف وتألق في

عينيه عندما كان ينظر إليها، كل هذا اخبرها بأنه مازال يحبها. وهذا ما سبب لها صدمة عنيفة عندما استيقظت في الصباح التالي لترى منه ذلك العداء والتهكم.

عبست وهي تتذكر ذلك المشهد. هل من الممكن أن تكون مخطئة؟ ماذا لو لم يعد ريتشارد يحبها، وكان توضيحه ذاك لها هو الحقيقة بعينيها؟ هل من الممكن أن يكون من الحقد بحيث يغويها لكي ينتقم منها فقط؟ وهل هو جاد حقاً في طلبه منها ان تمكث معه الثلاثة أشهر التالية؟ وهل سينفذ اتفاقهما بأن يعاملها بتهذيب أم أنه سيعود إلى قذفها بتهم قاسية وشتائم لا اساس لها من الصحة؟ ثم ما هي حقيقة علاقته بأماندا؟ هل هي مجرد موظفة عنده؟ أم انها تعني، بالنسبة إليه، اكثر من ذلك؟

وشعرت بالراحة في النهاية عندما دخلت السيارة طريقاً يؤدي إلى مجموعة منازل، على طراز البحر الأبيض المتوسط، مقامة بين حدائق تشرف على الميناء، وخلال براري ملتفة الأشجار الباسقة، والأجمات والنباتات المزهرة. ألقت إيما نظرة متشائمة على بيت كبير ذي جدران بلون اليقطين، وابواب ونوافذ خضراء، وسقف برتقالي من القرميد، وكان الطريق المرصوف بالحصى تنبت فيه الأعشاب، ولكن إيما رأت على الفور ان الحديقة كانت يوماً ما رائعة الجمال، كانت اشجار النخيل تنتصب شامخة وسط مرج اخضر قام في وسطه نافورة ماء، كما ان الأعشاب كانت تنمو في البركة الجافة، وكان الجو يعبق بشذا الأزهار البرية.

ولحسن الحظ، خصوصاً بوجود امانداء بدا ان ريتشارد

ما زال يذكر وعده عن التهذيب، قال وهو يتحول مخاطباً إيما: «يبدو ان النباتات أوشكت على الذبول، ولهذا فكرت في أنه ربما تحبين ان تنصحيني بشأن كيفية تجديدها وكذلك في العثور على اماكن مناسبة لتلك التحف التي اشتريناها في بالي. وهنالك أيضاً بيت زجاجي لحفظ النباتات خلف المنزل يشرف على الميناء. ان نصف ألواحه الزجاجية مهشمة ولكن من الممكن اصلاحها. وربما امكنك ترتيب الأمر مع بعض المختصين في ذلك.»

ظلت إيما صامتة لحظة وهي تعض شفتها. لقد شعرت بضيق بالغ إذ تراه يحاول جرها لتشاركه خططه في تجديد المنزل والحديقة، خصوصاً وهي تعلم انهما لن يمكثا معاً سوى ثلاثة أشهر. أهي مجرد لعبة خبيثة يجريها معها؟ أم انه يريد حقاً أن يشركها في حياته؟ وتاقت إلى توجيه هذا السؤال إليه ولكن وجود اماندا في السيارة منعها من ذلك. وبدلاً من ذلك، سألته: «منذ متى امتلكت المنزل؟»

«منذ ثلاثة اشهر فقط، لقد بيع بعد وفاة صاحبته، وهي سيدة مسنة كانت تعيش فيه وكانت اكثر وهناً وضعفاً من ان تتمكن من تعهده والعناية به، ولكنني أظن انه عند اصلاحه سيصبح بيتاً ممتازاً.»

ولم تتمكن إيما إلا الموافقة على تقييمه هذا عندما طاف ريتشارد بها داخل المنزل، فقد كان داخله، كحديقته، منبئاً عن فخامة وابهة مر عليهما الزمن. كان ثمة ثريا ضخمة تنير المدخل الفسيح المغطى بالقرميد والمزين بالفسيفساء والسلم الرخامي بدرابزينه الحديدي الأسود القديم الطراز والذي يقود إلى الطابق الأعلى. ولكن ورق الجدران كان قد

غطته الرطوبة بالبقع وتمزق في اماكن كثيرة كما كان الهواء مشبعاً برائحة العفونة الناشئة عن الهجران الطويل للمكان. وألقى ريتشارد بحقائبهما إلى الأرض دون اكتراث، ثم تحول إلى اماندا قائلاً ببشاشة: «شكراً لملاقاتنا في المطار، ولكنني أظن انه قد حان وقت عودتك إلى المكتب.»

فقالت: «يمكنني ان أبقى إذا كان هناك أي شيء آخر انت بحاجة لقضائه.»

أجاب باسماً بطريقة جعلت عينيه تتغضنان في نهايتهما: «كلا، لا شيء هناك. لقد قمت بالكثير لأجلنا.»

شعرت إيما بغيرة مفاجئة مؤلمة كطعنه خنجر تطعنها في الأعماق لدى رؤيتها لتلك النظرة التي قابلت اماندا بها كلماته هذه. انها تحبه قطعاً، فذلك ظاهر في ملامحها بجلاء. ولكن ما نوع شعوره هو نحوها؟ إنما، عندما اغلق الباب خلف المرأة الأخرى، حاولت إيما أن تخفي شكوكها هذه، ذلك انه إذا كان ريتشارد يحب اماندا حقاً، فإيما ستكون حمقاء إذا هي اطلقت العنان لمشاعرها نحوه. لقد أدركت بعد إذ عادا إلى بعضهما في بالي أن مشاعر كل منهما نحو الآخر مازالت بنفس العنف والتأجج التي كانت عليهما على الدوام، ولكنها لم تعد عروساً في التاسعة عشرة من عمرها، فهي هذه الأيام ليست من الحماقة بحيث تعتقد بأن الحب هو المفتاح الوحيد للسعادة الزوجية. وفكرت مرة أخرى في تلك النظرة التي تبادلها ريتشارد واماندا، وشعرت بقلق بالغ يثقل قلبها.

سألته فجأة: «كيف ستعود اماندا إلى المكتب؟»

www.elromancia.com

أجاب: «لقد كانت تركت سيارتها هنا، انها تفعل هذا غالباً. والآن، هل تريدين ان تلقي نظرة حول المنزل؟»

أجابت: «ليس الآن. ان ما اريده حالياً هو الاغتسال وفنجاناً من الشاي.»

أومأ ريتشارد برأسه وقد تبددت الفظاظة التي لازمته في بالي وأثناء رحلة القدوم بالطائرة ليحل مكانها تهذيب مبالغ فيه وجدته في غير موضعه، بدا وكأنما قد قهر كراهيته لها وصار بإمكانه ان يواجهها بكل هدوء وكأنها ليست سوى ضيفة موقتة. ولكن هذه الفكرة لم تجلب السلوى إلى نفسها. تباً لذلك، انها لا تريده أن يعاملها وكأنها احد معارفه في العمل، انها زوجته وليست زائرته. وإذا استلزم هذا خصاماً عنيفاً يحدث بينهما تعلو فيه الأصوات وتصفق الأبواب وتحطم اللوحات على الجدران، مما يسقط الحواجز بينهما، فليكن هذا. ذلك انها تشعر بحنين عنيف من كل قلبها إلى ريتشارد القديم الذي عرفته، والذي كان يندفع من غرفة إلى أخرى كالدب الغاضب. وإذا بنظراتها تشتبك بنظراته فيموت الأمل. ذلك أن حزناً هائلاً تكمش بقلب إيما بعد ان شعرت بأنها تحدّق في رجل غريب تماماً، في شخص صادف أنه يشبه زوجها في شعره الأشقر، وعينيه الزرقاوين الفياضتين بالحيوية وقامته الفارعة. ولكنه ينظر إليها بعدم اكتراث كأي رجل غريب.

قال: «تعالي إلى الطابق العلوي لأريك غرفة النوم، فهذه على الأقل جدّدت. انها والمطبخ، أول شيئين قمت بتجديدهما.»

فتبعته صاعدة السلم إلى غرفة نوم فسيحة مظلمة. إجتاز الغرفة ليفتح باباً زجاجياً ثم مصراعاً خشبياً مستطيلاً يفتح على شرفة خارجية، وتدفق سيل من الهواء النقي وأشعة الشمس إلى الغرفة لتجد إيما أنها قد جدّدت حقاً. كانت الجدران مكسوة بورق أبيض مزخرف بينما انبسطت على الأرض سجادة خضراء سميكة بالغة النعومة. ولكن السرير هو الذي احتل معظم الغرفة. كان سريراً واسعاً من خشب الماهوغاني المحفور وخلفه ستارة مخططة بالأبيض والأخضر تصل إلى السقف، ويعلو السرير غطاء من الحرير الصيني الطبيعي ذو رسوم ملونة لطيور وأزهار. وكان في احد الزوايا أريكة صغيرة تناثرت عليها وسائد بنفس التصميم... وكان، عدا عن ذلك، خزانة ثياب من خشب الماهوغاني، ومناضد ملاصقة للسرير. وفتح ريتشارد باباً في جدار، مخفي المعالم، ظهر خلفه حمام مزخرف برخام أبيض وأخضر، وذو صنابير ذهبية اللون.

قال متهكماً: «هذا هو الحمام. فامضي فيه ما شئت من الوقت ثم انزلي إلى الطابق الأسفل حيث نتناول الشاي، والمطبخ هو الباب الثاني إلى اليمين عندما تتركين السلم.»

انتظرت إلى أن خرج من الغرفة، ثم ألقت بحقيبة يدها على السرير، ومن ثم توجهت إلى الحمام حيث أمضت خمس دقائق من الرفاهية المبهجة تحت الدوش الدافىء، مزيلة عنها كل شوائب الرحلة من إرهاق متخلية عن كل ما يستدعي التفكير. وعندما خرجت من الحمام مرتدية الروب،

واجهتها على الفور مشكلة عملية، ما الذي ستلبسه الآن؟ ولكن، ما أن فتحت أحد الأدراج، حتى تملكها شعور هو مزيج من الضيق والإرتياح وذلك حين وجدته مليئاً بملابسها. لقد احضروا ملابسها إلى هنا أثناء وجودها في بالي، كيف استطاع ريتشارد ان يتدبر أمر ذلك؟ لا بد انه اتصل هاتفياً بالآنسة ماتي وطلب منها ذلك. وسألت نفسها، هل حقاً ان بإمكانه ان يستلم حياتها، وبهذه البساطة، ليكيّفها حسب ما يناسبه؟ نعم، من الواضح انه فعل ذلك.

كانت تشتعل بالكراهية وهي ترتدي ملابسها المؤلفة من طقم اخضر رقيق القماش، وبعد ذلك بعشر دقائق، كانت قد وصلت إلى المطبخ في الطابق الأسفل. ولم يكن هناك أثر لريتشارد ولكن الجو كان يعبق برائحة القهوة، ففتحت باباً آخر من تلك الأبواب الفرنسية الطراز وخرجت إلى شرفة مرصوفة بالقرميد حيث وجدت ما كانت تفتش عنه. لقد كان ريتشارد هناك جالساً إلى مائدة اعدها لشخصين، وذلك قبالة مياه الميناء الزرقاء المتألقة.

قال وهو يجر كرسياً من الخيزران يشير إليها بالجلوس: «اجلسي. بإمكاني أن اقدم اليك قهوة أو شاي وكيك التفاح الهولندي بالقشدة.»

فجلست تسأله بعينين متسعتين: «كيف امكنك تحضير كل هذا؟» وتحول انزعاجها بالرغم منها، إلى تقدير.

ولكن جوابه دمر كل سرورها حين قال: «لقد كنت أخبرت امانداً هذا الصباح ان تشتري كيك التفاح والقشدة، وكان في المنزل بعض الكيك العادي، من قبل. فهي تحتفظ به دوماً في المنزل.»

توترت لجوابه هذا، إذن فإن امانداً تستعمل هذا المنزل كبيتها تماماً حتى انها تحتفظ فيه بطعامها الخاص.

فقالت بحدة: «لقد ظننتها محامية، وليس مرافقة.»

رفع حاجبه متكاسلاً إزاء هذه الحدة في لهجتها، وأجاب: «انها محامية فعلاً، ومحامية ممتازة. فهي داهية فطنة ومصممة دوماً على النجاح. ولكنها أيضاً خدوم تماماً، فهي تقوم بأي شيء لأجلي.»

فكرت إيما بحنق في أن تلك المرأة لا بد تفعل ذلك، لدى إشارة منه. والهبها شعور بالغيرة وحدقت في ريتشارد باستياء بينما كان يقطع كيك التفاح ويضعه في طبقين، وعندما اتجهت يداه نحو إناء القشدة، هتفت به: «لا أريد قشدة.»

فقال عابساً: «ألم تعودي تأكلينها، انك اعتدت ان تحبيها.»

لوت شفتيها قائلة: «انني مازلت أحبها في الأحوال العادية، ولكنني اليوم أشعر بغثيان. وربما هو تأثير الرحلة بالطائرة.»

فقال موافقاً: «هذا ممكن. كان السفر دوماً يصيبك بالغثيان، أليس كذلك؟ حسناً، لماذا لا تستلقين لتنالي شيئاً من الراحة، وذلك بعد انتهائك من تناول الشاي؟ ان عليّ ان اذهب إلى المكتب لرؤية امانداً مرة أخرى. وهكذا يمكنك أن تعتبري نفسك في بيتك.»

عندما جلست تشرب الشاي وتأكل الكيك، اخذت افكارها تتسابق، لم تجد مناصاً من التفكير في مبلغ غرابة هذا الوضع. كيف يدعوها ريتشارد إلى اعتبار

نفسها في بيتها بينما هي زوجته؟ ان هذا كلام يقال للزائرين للغرباء الذين ليسوا من سكان البيت. ولا حاجة لهؤلاء من أن يخبرهم احد بذلك. انما إذا كان ريتشارد لا يراها سوى أحد أولئك الزائرين غير ذوي الأهمية، فلماذا إذن يتابع تمثيلية اعادتها زوجة له؟ هل بإمكان شخص ما حقاً ان يكون من اللهفة للانتقام بحيث يبقي معه امرأة لمدة ثلاثة أشهر ليطردها في نهاية العقد كما لو كانت خادمة لم تنل رضاه؟ وفكرت في وجه ريتشارد المتحجر أثناء رحلة العودة بالطائرة من بالي، فتملكتها قشعريرة، نعم. بإمكانه ذلك وغمرتها موجة من المذلة إذ تذكرت ماكانت قالته له. ما كان أحمقها وهي تثرثر عن الحب، حسناً، انها ستصون كرامتها في المستقبل بشكل أقوى. وفجأة، دفعت طبقها بعيداً، متمنية لو تنتهي هذه المحنة. ووقفت وهي تبتسم لريتشارد بكآبة، وتقول بحزم: «شكراً لهذا الشاي، أظن أن الأفضل أن اصعد إلى غرفة النوم لأرتاح قليلاً.»

«كما تشائين.»

وبعد ذلك بربع ساعة، كانت مستلقية على جانب السرير الفسيح، سمعت صوت سيارة ريتشارد تتحرك مبتعدة. فأغمضت عينيها وأدارت وجهها تدفنه في الوسادة وهي تتأوه.

وعندما استيقظت بعد ذلك بساعات، وجدت الغرفة تسبح في ضوء المصباحين القائمين إلى جانبي السرير. وكان ريتشارد قد جلس لتوه على السرير بجانبها متسبباً في انبعاج الفراش تحتها مما جعلها تستيقظ.

سألها: «اتشعرين بتحسن الآن؟ لقد طلبت من المطعم ارسال عشاء إلينا إذا كنت جائعة.»

تثاءبت إيما وجلست وهي تزيح شعرها عن عينيها. بالرغم من قرارها في أن تبقيه بعيداً عن مشاعرها، فقد خفق قلبها سروراً وهي تراه ينظر إليها بقلق.

وقالت: «انني أحسن الآن، شكراً.»

قبل تناولهما الطعام، جال بها ريتشارد في أنحاء البيت حيث أراها كل تفاصيل غرفه، بثرياتها الإيطالية الصنع، وزخارفها. ولم تتمالك إيما من الشعور بالإثارة تهزها، وهي تتمنى من كل قلبها لو أنهما يخططان حقاً للمشاركة في اصلاح وإعادة زخرفة هذا المنزل القديم الرائع الجمال، ولكنها كانت تشعر بنفسها غريبة لا تنتمي إلى هذا المكان. وهكذا، عندما سألها ريتشارد، في النهاية، عما إذا كان المكان اعجبها، كان جوابها ينقصه الحماس تماماً.

سألها وهما يعودان إلى المطبخ: «ما رأيك فيه؟ إنه سيكون بالغ الروعة عندما ينتهي اصلاحه، أليس كذلك؟»

فهزت كتفيها قائلة بعدم اكتراث: «أظن ذلك. لا يمكنني القول انه يروقني حالياً.»

فبدا على ملامحه تعبير غامض وهو ينظر إليها وقد ضاقت عيناه الزرقاوان، ومالبث ان بدا وكأنه لا يحسب لرأيها أي حساب، وهو يقول: «آه، حسناً، لا اظن اعجابك به، أو عدمه، بالشيء المهم، فلنذهب ونتناول العشاء.»

كان الطعام ممتازاً. كان روستو مطهواً ضمن فطيرة وبجانبه صلصة البندورة والفلفل الأسود، وكذلك بطاطا

مقلية وخضار، وبشكل ما، تمكنا من أن يتجنبا قليلاً التفكير في نوع علاقتهما الخطرة ليتحدثا بأدب في شؤون العمل، والإجازات في ما وراء البحار التي كانا استمتعا بها، ومختلف المسرحيات والحفلات الموسيقية التي كانت تعرض في سيدني. ولكن بعد تناول القهوة، فجر ريتشارد قنبلة أخرى، إذ قال: «بالمناسبة، لقد دعوت أمي لتناول الغداء معنا الأحد القادم. اظن ان لا بأس في ذلك بالنسبة إليك.»

لم تقابل والدة ريتشارد سوى مرتين أو ثلاث أثناء حياتهما الزوجية، وكانت دوماً تشعر أن لويز فيلدينغ، أمه هذه، لا تحبها، ولكن ماذا بإمكانها أن تقول؟ هل بإمكانها أن ترفض دخول أمه إلى منزله؟

قالت بصوت خافت: «آه، سيكون هذا حسناً. هل ستبقى مدة طويلة؟»

أجاب: «انها ستبقى للغداء وللعصر فقط. أظن حان الوقت لكي تتعرفا إلى بعضكما، انتما الاثنتان، بشكل أفضل.»

عندما وصلت لويز فيلدينغ بعد ذلك بيومين، كانت إيما ماتزال تشعر وكأنها تريد ان تهرب من البلاد باسم مستعار.

بدت المرأة البيضاء الشعر الصغيرة الحجم وهي تصعد الدرجات الأمامية بتثاقل بمعونة عصا، بدت مخيفة كعادتها، ولكن عندما جاءت إيما إلى الباب لتستقبلها، تملكها التأثر وهي ترى لويز تحمل باقة من الورود البيضاء الرائعة الجمال، ثم تميل عليها تقبلها في وجنتها، وهي تقول: «أرجو ان تعجبك هذه، يا إيما، انها من حديقتي. لقد اخبرني ريتشارد انك كنت مولعة جداً بالزهور.»

فقالت إيما: «اشكرك، وما أحسن هذا منك. تفضلي بالدخول وتناولي كوباً من العصير.»

وبالرغم من هذه اللفتة الودود من لويز، كان الحديث على المائدة متوتراً تماماً. وكانت إيما، حيث انها لم تكن ماهرة في الطهو، قد طلبت من مطعم ارسال وجبة الطعام، وكان الطعام ممتازاً. كان مؤلفاً من حساء الخضار يتبعه دجاج محمّر وفطائر لحم مع البطاطا والبازلاء بالنعناع. ومع هذا فقد كان الحديث ثقيلاً متكلفاً. وكان واضحاً ان ريتشارد لم يكن أخبر أمه بالسبب الحقيقي لهذا الصلح المفاجيء بينهما، فكانت لويز تبذل جهدها في الإدعاء بأنها لا تعلم بأن الزوجين كانا مفترقين، وطبعاً كان هذا يعني ان الثماني سنوات الماضية من حياتهما لم يكن لها وجود. وكانت النتيجة ان إيما ولويز انخرطتا في حديث طويل عن ذبابة الزهور، بينما تابع ريتشارد طعامه بهدوء وقد ظهر عليه عدم ملاحظته أي توتر، ولكن ما أن أنهيا شرب القهوة، حتى تصاعد رنين الهاتف، فنهض من أمام المائدة متوجهاً إلى القاعة ليعود بعد دقائق وليعلن قائلاً: «انها اماندا. ثمة رسالة مستعجلة وصلت إلى المكتب بالفاكس من شركة الملاحة في سنغافورة ما يستلزم حضوري حالاً. انني سأغيب مدة ساعة أو نحو ذلك فأرجو ان تستمتعا بوقتكما.»

واستدار حول المائدة يقبل كلاً منهما على وجنتها، ثم خرج دون كلمة أخرى. وحسب معاملاتها في العمل، أدركت ان من المحتمل جداً ان رسالة بالفاكس قد وصلت حقاً إلى المكتب، ولكن لماذا يتوجب على اماندا أن تساعده في ذلك؟

ولماذا يترك إيما وحدها مع أمه التي تكرهها؟ وفجأة انتبهت إلى عيني لويز البنيتين وهما تحدّقان فيها بحدة بشكل بعث الإضطراب إلى نفسها. فنهضت تسألها: «اتريدين مزيداً من القهوة؟»

ودهشت اذ شعرت لهذه الحركة المفاجئة بما يشبه الإغماء يتملكها. فجمدت في مكانها، وهي ترى الغرفة تدور حولها.

وسرعان ما كانت لويز تقف بجانبها تمسك بمرفقها وهي تسألها: «هل انت بخير، يا إيما؟ لقد شحب وجهك تماماً. اجلسي هنا يا إيما، سأحضر لك كوب ماء.»

واخذت المرأة المسنة تعرج نحو المغسلة، ثم عادت بكوب من الماء ووقفت تنظر إلى إيما وهي تشرب.

قالت إيما: «اشكرك. انني آسفة لهذا، ان ذلك من تأثير السفر فقط، فهو دوماً يجعلني اشعر بشيء من الغثيان، ولكنني لا اشعر عادة، بمثل سوء حالتي الآن.»

«ان ما انت بحاجة إليه هو راحة تامة على الأريكة، إذهبي إلى الغرفة الصغيرة واستسلمي لإغفاءة قصيرة، وسأحضر لك فيما بعد فنجاناً من الشاي.»

بعد ذلك بساعة، كانت إيما مازالت تعاني من الشحوب وشيء من الوهن، فتناولت من يد لويز فنجاناً من الشاي الثقيل الحلو وبعض اصابع الكعك. وبدا أن هذا التصرف الرقيق من جانب لويز قد أزال التحفظ بينهما إلى درجة ملحوظة. فجلست لويز على كرسي خيزراني كبير ذي وسائد وثيرة ومنحت إيما ابتسامة غير متوقعة، ثم تمتمت قائلة: «لم أجد فرصة لأقول هذا من قبل، وهو انني مسرورة حقاً لعودتكما، انت وريتشارد، إلى بعضكما.»

فقالت إيما متلعثمة: «ما... ماذا؟ ولكنك في البداية لم تقبلي بزواجنا أبداً. أليس كذلك؟»

أطلقت لويز ضحكة قصيرة وهي تعترف قائلة: «هذا صحيح، فأنا لم اقبل، وان لم يكن لي أي رأي في الموضوع، في الواقع. فقد كنتما قد تزوجتما وانتهى الأمر عندما سمعت انا بالموضوع. وطبعاً، كان ذلك جزءاً من المشكلة. فقد آذى مشاعري ان لم أدع إلى حفلة الزفاف. وقد أوضح لي ريتشارد فيما بعد انه كان خائفاً من أن احاول ان اقنعك بالعدول عن الزواج إذا انا علمت بما كان يخططله. وربما كان على حق، إذ ربما كنت أنا فكرت في ان تلك غلطة كبيرة.»

فسألتها إيما مذهولة لقولها هذا: «لماذا؟» فأخذت لويز رشفة من فنجانها ثم قالت بصراحة: «حسناً، أولاً، كنت أنت صغيرة جداً، أما بالنسبة لريتشارد فآخر ما كان ينبغي له هو الزواج وذلك بسبب كل تلك الأعباء التي كانت تثقل كاهله.»

سألتها إيما: «أي أعباء تلك؟ ماذا تعنين؟»

نظرت لويز إليها مجفلة وسألتها: «ألم يخبرك قط عن ذلك؟» وعندما استمرت إيما تنظر إليها بحيرة، تنهدت حماتها وهي تقول ساخطة: «حسناً، قد يكون ريتشارد ابني، ولكنه حقاً يثير الحنق. فهو احياناً كتوم قوي الإرادة وعنيد كالبغل. تصوري أنه لا يخبر زوجته بأمور كهذه.»

فصرخت إيما: «يخبرني بماذا؟»

أجابت لويز: «اساليه.»

ابتدأت إيما تقول: «ولكن...»

فقاطعتها لويز: «كلا، كلا يا إيما. لا تحاولي استجوابي عن ذلك. ان ريتشارد هو الشخص الذي ينبغي ان يخبرك بذلك، رغم انني مندهشة لأنه لم يخبرك منذ البداية، ربما لو كنت تعلمين مقدار العبء الذي كان يرزح تحته، لانتظرت طويلاً قبل ان تتزوجي منه. لو لم يكن ريتشارد يعاني من كل ذلك الضغط، ولو لم تكوني أنت غير ناضجة لكان من المؤكد ان زواجكما كان حقق نجاحاً كبيراً.»

احتجت إيما قائلة: «انني لم اكن غير ناضجة.»

فالتوت شفتا لويز بابتسامة جافة: «لا تغضبي يا إيما. انني لا اشك في انك نضجت أثناء السنوات الثماني الماضية وذلك من الطريقة التي أدرت بها أعمال أبيك بعد وفاته. لقد كان ريتشارد يفخر بك كثيراً وقد وافقته أنا على ان تصرفك بالنسبة إلى الشركة كان ممتازاً، ولكن كان لديّ سبباً وجيهاً لكي اكون على حذر منك في الماضي. فلو لم تكوني مدلّلة وغير ناضجة لما هربت مع رجل آخر لمجرد شجار تافه قام بينك وبين ريتشارد.»

فغرت إيما فمها بذهول. هل هذا ما اخبر به ريتشارد أمه عن سبب انفصالهما؟ وتملكها السخط لهذا الظلم. كيف امكنه ان يكون ماكراً ومنافقاً بهذا الشكل، فمهما كانت اخطاؤه في الماضي، فهو لم يكن ليلوم الآخرين على اخطائه هو التي يقترفها. وشعرت بخيبة أمل هائلة إزاء هذا البرهان الجديد على قدرته على الخداع. من الجلي انه قد قلب الوقائع لكي يجعل أمه تظن أنه كان خالياً من أي ذنب، بينما كان إيما هي الطرف المذنب، فسحبت نفساً سريعاً حاداً لكي تشرح لها الأمر، لكنها عادت فترددت. وبعد، فإن ريتشارد مازال

زوجها، ودفعها شعور غريب بالوفاء إلى الإحساس بالنفور من التشهير به. وهكذا، بدلاً من ذلك، تنهدت وهي تقول بأسى: «كان هناك اكثر من هذا.» ثم فكرت في تبذيرها، جهلها بالأعمال المنزلية، نوبات الغضب الصبيانية التي كانت تعتريها عندما كان ريتشارد يفضل الذهاب إلى العمل على البقاء معها. فتابعت تقول: «ولكن عليّ ان اعترف بأنني اقترفت الكثير من الأخطاء. انما انتبهي، فإن ريتشارد لم يكن مثالياً هو أيضاً.»

بدا الهزل في عيني لويز وأجابت: «لا أظنه كان كذلك، فقد كان دوماً رجلاً صعب المعاشرة، فهو سريع الغضب، عنيد وغير متسامح، وهذه صفات مخيفة، ولكنه يحبك، يا إيما، وإلا لما عاد إليك، واعتقد، لنفس السبب، انك انت أيضاً تحبينه. ولهذا أتمنى لكما كل السعادة.»

كان هذا أسوأ من اكتشافها ان ريتشارد قد قلب الوقائع لكي يلطخ اسمها. فهذه أمه المسكينة الساذجة تبتسم لها بلطف معتقدة بسذاجة بأن كل الأمور قد صلحت بين هذين الزوجين السعيدين، ويا لها من مزحة.

قالت إيما بمرارة: «اشكرك.»

ابتدأت لويز تجمع معدات الشاي بسرعة وبحركات ذات مغزى وهي تقول: «حسناً، كما سبق وقلت من قبل، انني مسرورة لعودتكما إلى بعضكما. أظن ان الزواج يستحق تعب المرء لأجله. والآن حيث انكما اصبحتما اكبر واكثر حكمة، فأنا متأكدة من أنكما ستحلان كل مشكلاتكما. واضيف إلى ذلك أنني لا أنوي أن اكون واحدة منها، يا إيما، فإذا كان بإمكاني المساعدة بأي شكل كان، فسأفعل، وأنا

أرحب بك في منزلي، على الدوام. وعدا ذلك فسأبقى بعيدة عن شؤونكما وأتمنى لكما كل السعادة في هذا العالم.»

انتفضت إيما قائلة: «هذا من بالغ لطفك.»

«كلا. هذا غير صحيح. فذلك انانية كبرى. لأنني اتطلع إلى أن اكون جدة وأظن انكما فرصتي لذلك. وبجانب ذلك، كنت أثناء السنة الماضية أو نحو ذلك، قد ابتدأ القلق يتملكني حقاً من أنه كان ينوي أن يطلقك ليتزوج تلك المرأة الفظيعة التي كان يعيش معها. ما اسمها؟ اماندا.

الفصل السادس

تملك ايما مثل كابوس ربط لسانها فلم تستطع نطقاً، كما شلت ساقاها. لم يكن ينتابها أدنى شك اثناء السنوات التي أمضتها وريتشارد منفصلين، في أنه كان ثمة نساء أخريات في حياته. ولكن ما كان لريتشارد أن يعيش مع امرأة أخرى إلا إذا كانت علاقتهما جادة تماماً... وآلمها ذلك. آلمها في الواقع إلى درجة فقدت معها للحظة كل احساس. وقبل أن تستطيع الحركة، فتح الباب فجأة ودخل ريتشارد الغرفة. وتلاشت ابتسامته الكسول لحظة وقع بصره على وجهها. وبخطوتين كان قد اجتاز الغرفة لينحني بجانبها آخذاً بيدها وهو يسألها بصوت حاد: «ما الذي حدث لك؟»

فقالت لويز: «من رأيي أنها أجهدت نفسها بالعمل ولمدة طويلة. لقد شعرت بدوار سيء بعد ذهابك وهي لا تبدو لي بحالة حسنة الآن، إذا أردت نصيحتي يا ريتشارد فارسلها إلى الطبيب ليقوم بفحص عام لها. ولا بد لك من أن تسمح لها ببعض الراحة والاسترخاء. سأذهب الآن ما دمت أنت عدت إلى البيت. كلا، لا تقف، سأخرج وحدي. إلى اللقاء يا ايما. أرجو أن تكون صحتك أفضل عندما أراك في المرة القادمة.»

وما أن انغلق الباب خلف أمه، حتى حدق ريتشارد في وجه ايما متفحصاً وقد بدا العبوس على ملامحه، ثم سألها: «هل أنت مريضة؟»

www.elromancia.com

فهزت رأسها نفياً، كانت تشعر وكأن البيت يدور بها. ولكنها لم تكن تعتقد بأنها مريضة حقاً. فالذي كانت تشعر به هو احساس بالغدر هو من العنف بحيث أوشكت على البكاء ومن ثم الهرب بعد ذلك. يا للغباء عند ذاك، ويا لشعور ريتشارد بالفوز إذ يعلم إلى أي حد يمكن أن يسبب لها الألم...

قالت بصوت عملي: «كلا. انني متعبة فقط.»

جلس بجانبها على الأريكة وهو يؤنبها قائلاً: «انك تجهدين نفسك بالعمل، لقد أخبرتني الآنسة ماتي بأنك غالباً ما تعملين ست عشرة أو ثماني عشرة ساعة في اليوم.»

فردت عليه تقول: «وهكذا أنت.»

أجاب: «هذا ما كنت عليه، وإنما لم أعد كذلك، فليس في نيتي أن أموت بنوبة قلبية قبل أن أبلغ الأربعين. ولهذا فأنا أعهد الآن إلى مفوضين عني بالكثير من أعمالي. وهذا ما يجب عليك أنت وذلك ابتداءً من الغد. سآخذك إلى المبنى الجديد الذي يحتوي على مكاتب الشركة وبهذا ترين ما أحرزناه من تقدم في الانتقال اليها. كما أننا سنزود الآنسة ماتي بسكرتيرة جديدة لمعاونتها. وماذا أيضاً؟ آه، ستكونين بحاجة إلى شخص ليعاين موقع البناء الجديد... وأنا أعرف الشخص الذي يصلح لذلك، وهو رجل يدعى رون بورتوللي فهو تاجر ممتاز وعامل جدي أيضاً. كما انه نزيه تماماً، هذا عدا عن أن بإمكانك اتخاذ مساعدين في النواحي القانونية للأشياء، إن امانداً...»

فقاطعته بعنف: «لا أريد مساعدة من أماندا.»

نظر اليها باستغراب، وقد ضاقت عيناه وزم شفتيه

مفكراً، وهو يقول: «كنت أريد فقط أن أقول إن بإمكان أماندا أن تنصح لنا بشخص تعرفه يكون موضعاً للثقة.»

فقالت ايما بحدة: «وكذلك لا أريد نصائحها.»

أمسك ريتشارد بكتفيها وأدارها لتواجهه وهو يقول بهدوء: «ما سبب كل هذا؟»

بقيت ايما لحظة صامتة وهي تضغط شفتيها ولكنها عندما تحدثت، أزعجها أن تجد نفسها تقول بصوت مرتجف: «قالت لي أمك أنك كنت تعيش مع أماندا.»

هز ريتشارد كتفيه قليلاً بما قد يعني التهكم ثم أومأ قائلاً: «هذا صحيح. وماذا في ذلك؟»

تبددت سيطرة ايما على نفسها وقالت بذهول: «كيف يمكنك أن تفعل هذا؟ من المفروض أنني زوجتك ومع هذا تجلس هنا بهدوء وتخبرني بأنك كنت تعيش مع امرأة أخرى. ألم تفكر قط في مشاعري، أو مشاعرها؟»

فارتسم على ملامح ريتشارد تعبير من تألم طويلاً وكأنه رجل طالما عانى صابراً من نزوات النساء غير العقلانية، وقال: «انك تجعلين من الأمر مشكلة، يا ايما. انك تعلمين جيداً أن هناك شقة صغيرة خلف هذا المنزل. حسناً، كل ما في الأمر أن أماندا مكثت فيه عدة أسابيع بعد انتقالي إلى هنا مباشرة. كانت قد باعت بيتها وليس لديها مكان آخر تذهب اليه إلى أن تنتقل إلى بيتها الجديد. ولكن أمي كعادتها، جمعت اثنين واثنين، فوجدت الحاصل خمسة.»

أمعنت ايما النظر فيه بارتياب. وبدا لها الأمر معقولاً، ولكن هل بامكانها أن تثق به؟ هذا إلى ان الشيء الآخر الذي

كشفت عنه لويز هذا النهار أراها ان بإمكان ريتشارد أن يقلب الحقائق بكل مهارة حسب ما يناسبه ذلك.

فانفجرت تقول: «قالت إنه كان من المحتمل انك ستتزوج أماندا.»

تغيرت ملامح ريتشارد إلى نوع من المكر، وبان الحذر عليه لحظة ليعود فيقول مراوغاً: «نعم. ان من المحتمل أن أفعل هذا.»

شهقت ايما. كيف بامكانه أن يجلس هنا بمثل هذا الهدوء والسخرية ويخبرها بشيء كهذا؟ وتمتمت: «أيها الحقير الذي لا يراعي مشاعر الآخرين.»

فقال غير مصدق: «أتعنين انك تهتمين بذلك حقاً؟ أما زلت تدعين انك تحبينني حقاً كما سبق وأخبرتني في بالي وذلك بكل حلاوة وفتنة؟ وهل تظنين حقاً بأنني من السذاجة بحيث أصدق ذلك؟»

انتفضت ايما للازدراء البالغ الذي بدا في صوته، وفجأة تلاشى ما تشعر به من تعاسة في غمرة الغضب والحقد اللذين تملكاها، فردت عليه بتهكم لاذع: «كلا، أنا لا أحبك. وكما سبق وقلت أنت، أن يقول شخص لآخر بأنه يحبه ما هو إلا جزء من خداع المشاعر أما ما نتحدث عنه هنا فهو أمر يتعلق بالكرامة، ولا علاقة للحب به.»

اشتدت قبضتا ريتشارد الضخمتان على مسند الكرسي الذي يجلس عليه إلى حد شعرت معه ايما بأن القشرة الخشبية الرقيقة التي تكسوه ستتهشم تحت الضغط. وضاقت عيناه بشكل اجرامي وأخذ يصرف بأسنانه بعنف. وبحركة مفاجئة، انكمشت ايما على نفسها على الأريكة، شبه خائفة

من أن تكون قد تمادت في استفزازه، ومع هذا ذعرت وهي تجد قلبها يخفق والحرارة تسري في كيانها عندما استمر ريتشارد يحدق فيها. وعندما دفع الكرسي بعنف، واجتاز الغرفة بخطى واسعة، شعرت بما يشبه خيبة الأمل، بينما استدار هو لينفس عن العنف الذي يجتاحه، بالكلمات فقال بصوت منخفض ينذر بالشر: «إذن، فقد ظفرنا بالحقيقة في النهاية. لقد عدنا معاً كزوج وزوجة، ولكن الحب لا يدخل في هذا الأمر بالنسبة اليك، حسناً، ونفس الشيء بالنسبة إليّ كذلك، يا ايما، وما دمنا لا يحب الواحد منا الآخر فما سأفعله بعد أن نعود إلى الانفصال، ليس من شؤونك، ولا مع من أفعله. كل ما عليك أن تهتمي به هو أن تكوني زوجة حقيقية لي أثناء الفترة القصيرة التي بقيت لك.»

فردت قائلة: «زوجة حقيقية؟ ما معنى هذا؟»

أجاب عابساً: «معناه انك تعطينني ما أريد، من تقارب ووفاء أيضاً، واحترام تام لي بوصفي زوجك.»

قفزت واقفة وهي تسأله ساخرة: «من أين حصلت على شهادتك في الحقوق؟»

فعاد إليها مجتازاً الغرفة بخطوتين، وأمسك بمعصمها بعنف آلمها وهو يزمجر قائلاً: «إنني لا أمزح يا ايما. إن بإمكانك أن تصفيني بأنني بدائي، إذا شئت، ولكن هنالك أشياء لا تتغير أبداً بين الرجل والمرأة. منها أنه لا يوجد رجل حقيقي لا يريد زوجته مخلصة له. لقد هربت مني منذ ثماني سنوات ولم أصفح عنك قط لهذا. حسناً، إنني هذه المرة من يملك اليد العليا ولا أنوي التفريط بذلك. لقد عدت إليّ سواء أعجبك هذا أم لم يعجبك، ولكن عليك أن تفهمي

تماماً انك عدت بناءً على شروطي. وهذا لا يتضمن ذهابك إلى أي رجل آخر. هل كلامي واضح؟»

فردت قائلة: «واضح تماماً. ولكن ألا ترى انك منافق نوعاً ما؟»

أجاب عابساً: «منافق في أي ناحية؟»

نزعت معصمها من قبضته واندفعت مبتعدة عنه. حتى في هذه اللحظة، ملأها التفكير في ريتشارد وأماندا معاً، بنوع من العنف والهياج ما منعها من النطق عدة لحظات قبل أن تستطيع الكلام. وقفت تجاهد في سبيل التنفس إلى أن عاد اليها شيء من الهدوء. فاستدارت تنظر إليه بعينين جامدتين يملأهما الاتهام، وقالت متحدية: «أما بالنسبة اليك وإلى أماندا، فذلك مسموح به تماماً، أليس كذلك؟ يمكنك أن تذهب إليها، تسكن معها حتى انك تخبرني بأنك ستتزوجها وما عليّ أنا إلا أن أقفل فمي. أقبل بأن أكون ممسحة أرجل بينما أنت تفعل ما يسرك. دعنا من الحب، يا ريتشارد، دعنا من الاخلاص! إنما ماذا عن الاحترام الحقيقي لي بصفتي زوجتك؟ ألم يخطر ببالك قط انه ربما لا يوجد امرأة حقيقية تقبل بألا يكون زوجها مخلصاً لها؟»

فبانت السخرية على ملامح ريتشارد جعلها تتمنى لو تصفعه، وقال معنفاً: «ها قد ابتدأت تتكون عندك فكرة عن الألم والإذلال الذي يرافق ذلك، أليس كذلك يا حبيبتي؟ إنني مسرور أن تري ذلك.»

حبست ايما أنفاسها، ثم صرخت في وجهه: «إنك وغد يا ريتشارد. إنك تحب تعذيبي، أليس كذلك؟»

أجاب بنفس الابتسامة الساخرة اللامبالية: «ربما.»

سحبت نفساً طويلاً مرتجفاً، وحاولت أن تنظر إليه بنفس الجمود واللامبالاة اللتين كان ينظر بهما إليها، ثم سألته بخشونة: «أتراك على علاقة متينة؟»

فهز كتفيه وهو ينظر اليها وقد ضاقت عيناه تهكماً، ثم أجاب: «ربما كنت كذلك، وربما لا فحاولي ان تعيشي بالشكوك والقلق فترة، يا ايما، وانظري كيف سيعجبك ذلك.»

«انك لا تهتم بي اطلاقاً. أليس كذلك؟»

أجاب بوحشية: «كلا أبداً. ثم انني لم أعد نمراً حبيساً في قفص يتقافز بين القضبان لأجلك يا ايما. هذه المرة أنا الذي سيفرقع بالسوط، فهل لي أن أذكرك بأن عودتنا هذه إلى بعضنا ليست بسبب الحب؟ وإنما بسبب الرغبة والانتقام؟»

اشتعل طبع ايما الناري، فأطلقت صرخة ممزقة وهي تهمّ بالقاء نفسها على ريتشارد تريد صفعه وهي تردد: «أكرهك... أكرهك.»

ولكن قبل أن تصل إليه، حدث شيء غريب. بدا وكأن الأرض ترتفع نحوها، وغامت الدنيا حولها. وعندما انزاح ذلك الشعور بالدوار عنها أخيراً، رأت نفسها قد عادت للجلوس على الأريكة وقد وضعت رأسها بين ركبتيها بينما ذراع ريتشارد حولها تطوقها سمعت صوته سريعاً قلقاً مليئاً بالاهتمام، ولكنه غير واضح، ما جعلها عاجزة عن فهم كلماته، إلى أن تلاشى الطنين الذي كان في أذنيها وعادت الأرض ثابتة تحت قدميها.

«ايما؟»

فرفعت رأسها وهي تترنح ونظرت إليه بعينين زائغتين.

فعاد يقول: «هل تشعرين الآن بتحسن؟»

أومأت برأسها غير واثقة فاشتد ضغط ذراعه حول كتفيها وكأنه يحميها، وهو يتمتم قائلاً: «انني آسف إذا كنت سببت لك هذا، إذ أغضبتك بهذا الشكل...»

هزت رأسها قائلة: «انك لست السبب في هذا يا ريتشارد أنا واثقة من ذلك. ما زلت أشعر بنفسي متوعكة الصحة منذ عودتنا من بالي.»

رد عليها قائلاً: «إنه اجهاد النفس في العمل. ولكنه توقف منذ هذه اللحظة. أتسمعينني؟ انك ستذهبين إلى الطبيب غداً وبعد ذلك تأخذين إجازة طويلة.»

فقالت بوهن: «فليكن ما تريد.»

«ماذا؟ الآن عرفت انك مريضة حقاً.»

وبدون تحذير، وقف على قدميه وبحركة سريعة رفعها عن الأريكة ففوجئت هي بهذا ورفعت عينيها تنظران إلى وجهه ومنحته ابتسامة خفيفة غير واثقة، وذهلت عندما صدرت عنه آهة خافتة. ولم تستطع انكار ما شعرت به من سرور مؤلم في تركه يصعد بها إلى غرفتها في الطابق العلوي مع أنها ربما أصبحت الآن قادرة تماماً على السير. وعندما وصلا ساعدها على التمدد على السرير الفسيح ثم اخذ يزيح خصلات شعرها الأسود الطويل عن وجهها. لقد غيرت نوبة الاغماء الجو بينهما تماماً. إذ بدلاً من العداء الذي سبق ورأته منه، كان الآن يحدق فيها بحنان.

سألها: «أيمكنني أن أحضر لك شيئاً؟ شيئاً تأكلينه أو تشربينه؟»

فهزت رأسها نفياً.

«أتريدينني أن أستدعي الطبيب؟»

هزت رأسها مرة أخرى وقد شعرت الآن بشيء من الحرج، وقالت وهي تسند نفسها إلى الوسائد: «كلا، صدقني، انني بخير الآن. لا أدري ماذا أصابني.»

«لقد أخبرتك انه الاجهاد. إنك ستخففين من ذلك الآن، يا سيدتي. اتفقنا؟»

فأطلقت ضحكة ناعمة متموجة وهي ترد عليه بمثل كلماته: «نعم، يا سيدي.»

فعبس فيها بشدة وسألها متوعداً: «هل تضحكين مني؟»

«طبعاً أنا أفعل ذلك.»

لوى شفتيه، وهو يقول محذراً: «ومع ذلك، فالأمر ليس مزاحاً، فاجهاد النفس في العمل، وعدم الراحة أو الاسترخاء ثم عدم مشاركة الغير مشكلاتك، كل ذلك يمكن أن يدمر حياتك. أنا أعرف ذلك فقد سبق وعانيت مثله.»

ذكرتها كلماته هذه بشيء. فحدقت فيه مفكرة وقد مالت برأسها إلى جانب وقالت: «لقد ذكرت لي أمك شيئاً كهذا. قالت انك كنت تحت ضغط شديد وكانت عليك أعباء كثيرة في بداية زواجنا. ماذا كانت تعني بذلك، يا ريتشارد؟»

تراجع إلى الخلف وقد بدا عليه فجأة الحذر والشك. وتمتم قائلاً: «لا شيء مهم.»

فمالت إلى الأمام وهي تلحّ عليه: «أخبرني، ألا تظن أن لي الحق بأن أعلم؟ خصوصاً أن ذلك كان جزءاً من السبب في اننا كنا نتشاجر على الدوام، والذي جعلنا نفترق في النهاية.»

فقال ساخطاً: «لا أدري لماذا لا تبقي أمي فمها مقفلاً. لم يكن الأمر مهماً حقاً، ولكن نعم أظن بالإمكان القول إنني كنت أرزح تحت أعباء كثيرة عندما تزوجتك.»

سألته برقة: «لماذا؟»

«إنها قصة معقدة. ولكن خلاصتها هي هذه. أتعلمين أن أمي قد أصيبت بوركها في حادث سيارة وأن هذا هو السبب في أنها تعرج عند المشي؟»

أومأت ايما برأسها قائلة: «نعم، لقد كنت أخبرتني بذلك. وأن أباك قد قتل في نفس الحادث، أليس كذلك؟ لا بد أن هذا كان صعباً عليك، يا ريتشارد. أستطيع أن أرى ذلك. ولكن ذلك حدث قبل أن نتعارف بعشر سنوات. وكان عمرك ستة عشر عاماً، أليس كذلك؟»

«نعم، هذا صحيح. ولكنني لم أخبرك قط بالقصة كاملة. لم يكن أحد منا يعلم قط أن أبي كان مبذراً ومسرفاً يسرة ويمينة. وأنه بقي سنوات يختلس من شركة المحاماة التي كان يعمل فيها، وذلك لكي يستمر في الصرف بدون ضوابط. وعندما توفي في الحادث، اكتشف زميله في الشركة كل شيء فأخبر عمتي بذلك. ولكنها انسحبت من كل هذا الأمر. كان الحل عندها هو أن كل ما كان يملكه أبي يجب أن يباع لكي يدفع ثمنه سداداً للديون، وأننا نحن أولاده الثلاثة يجب أن نوضع في الملاجىء. كانت أختي كريستينا لا تتجاوز الحادية عشرة وكان جون في الثامنة وكنت أعلم أنه إذا حدث هذا فسينكسر قلب أمي. وقد بقيت أشهراً مريضة إلى حد لم نستطع معه اخبارها بالحقيقة. تداولت في الأمر مع المسؤول في

الشركة بنفسي وأحضرت عمتي لتشترك في الحديث. ووصلنا إلى ترتيب خاص فيما بيننا فلا يعلم أحد آخر بالأمر.»

سألته ايما: «ما هو نوع هذا الترتيب الخاص؟»

«حسناً، كان هنالك أمران أقسمت أنا على القيام بهما. الأمر الأول هو أن أبقي الأسرة مجتمعة. وكان هذا سهلاً بالنسبة لغيره. ألححت على عمتي أن تخبر مديرية الشؤون الاجتماعية بأنها ستوفر لنا نحن الثلاثة بيتاً للسكن. ولكنها في الواقع لم تفعل شيئاً، كنت أنا الذي قمت بهذا. تركت المدرسة وحصلت على عمل كعامل بناء في إحدى البنايات. واستأجرت منزلاً وقمت بخدمة كريستينا وجون قدر استطاعتي إلى أن أصبح بمقدور أمي ترك المستشفى والقدوم إلى البيت.»

«كم من الوقت استهلك هذا؟»

«سنتان. ومع هذا فقد كانت بحاجة إلى ممرضة خاصة فترة طويلة.»

فرددت ايما كلامه: «سنتان، ثم أنت تقول إن ذلك كان سهلاً بالنسبة إلى غيره. ما هو الأمر الثاني الذي أقسمت عليه؟»

«ان أعيد كل المال الذي كان أبي قد اختلسه وكان هذا أصعب كثيراً. كل شيء تركه في وصيته كان ينبغي أن يباع، وبقي مع ذلك ديون باهظة. وفي الوقت الذي عرفتك فيه، كانت الأمور قد تحسنت كثيراً، ولكن كان ما يزال عليّ أن أدفع آخر مبلغ من الديون تلك. وعدا عن ذلك، كانت كريستينا تدرس الطب وجون في سنته

النهائية من مدرسته الخاصة الغالية التكاليف. كان وقتاً صعباً.»

حدقت ايما فيه وهمست: «لماذا لم تخبرني قط بهذا كله يا ريتشارد؟»

أجاب باختصار وما زالت في عينيه تلك النظرة الغامضة المتحفزة: «كنت أريد أن أحميك. رأيت أن واجبي هو أن أكفل لك كل أسباب المعيشة، لا أن أسبب لك القلق بشأن الديون والالتزامات. وكان عليّ أن أتحمل كل الخشونة والعناء وحدي وأنا أقوم بكل تلك الأعباء، وإلا فأي حق لي في أن أتزوجك؟ فقد نشأت أنت في الثراء والرفاهية. كنت أريد أن أحميك. أحافظ عليك وأدافع عنك.»

تجهم وجهها وهي تقول: «ما أغرب هذا. كنت دوماً أظنك تحب الصراخ بي والعبوس في وجهي.»

رمقها بعينين تتقدان ولكنه لوى شفتيه وهو يقول معترفاً: «وهذا أيضاً.»

فقالت محتجة: «كان ذلك حماقة، يا ريتشارد. إن اعجابي بك كبير جداً لما قمت به، إنما كان عليك أن تطلعني على كل مشكلاتك. فأنا أعرف الآن أنه لو كنت فعلت ذلك، لما كنا تشاجرنا بذلك الشكل. ولما كنت مسرفة بذلك الشكل، أو كنت أتذمر حين كنت تخرج للقيام بأعمال اضافية. ولكنني لم أكن قارئة أفكار. كيف كان بامكاني أن أعرف بكل ما كنت تعانيه؟ كنت أحياناً مزعجاً سيىء الخلق، وكنت أظنك تشعر بالندم لزواجك مني.»

قال بحدة: «لا تكوني سخيفة. كنت فقط أجهد عقلي بالتساؤل عما إذا كنت سأستطيع يوماً سداد ديون والدي.

لكي أوفر لك نوع الحياة التي كنت أريدك أن تستمتعي بها. إنني لم أندم قط على زواجي منك.»

سألته بصوت أجش: «ألم تندم قط؟»

قال بوحشية: «ندمت فقط بعد أن هربت مع ذلك الشخص الشريف... نايجل.»

أغمضت عينيها برهة وهي ترتجف، لماذا؟ لماذا يعود دوماً إلى هذا الموضوع؟ ولماذا يراه مختلفاً عن علاقته الحقيرة مع المرأة الأخرى؟ هل هو يعتقد جاداً بأن الاخلاص هو وقف على المرأة دون الرجل؟

وشعرت لحظة باغراء يدفعها إلى أن تذكر له الحقيقة... وأنها لم تكن على علاقة قط مع نايجل رغم أنها تعمدت أن تجعل ريتشارد يعتقد بأنها فعلت ذلك. كان خداعها له طريقتها في الانتقام منه... أن تريه بأنها لا تهتم اطلاقاً بتصرفاته نحوها، حتى في هذا الحين، لم تكن مستعدة للتضحية بما أحرزته من تقدم في هذا المجال. كيف تخبر ريتشارد بأنها لم تخدعه في حياتها، وذلك في الوقت الذي يخطط فيه لتركها لأجل أماندا؟ هذا لا يمكن أن يكون. إنما مع ذلك، لم تكن تريد أن يستمر هذا الشعور بالمرارة بينهما، أن تستمر في تسميم...

فتحت عينيها وقالت ضارعة: «لا تستمر في العودة إلى هذا الموضوع مرة بعد مرة. لا يمكنني احتمال ذلك. كان هذا منذ سنوات، يا ريتشارد، ولم يكن هو الخطأ الوحيد الذي حدث بيننا. هل يجب عليك أن تستمر في كرهي إلى الأبد؟ ألا يمكنك حتى أن تكون رقيقاً معي؟»

حدق فيها بنظرة غريبة مفكرة. وتنهد قائلاً وهو يهز رأسه: «لا أدري. ولكن أظن بإمكاني أن أحاول.»

فاندفعت تسأله: «هل لك إذن أن تعفيني من هذه الاتفاقية التي بيننا.»

أوحت إليها كرامتها أن عليها أن تطلب ذلك وتطلبه بسرعة مادام ريتشارد رقيقاً معها. ومع ذلك فقد ساورها حال نطقها بهذه الكلمات، شعور بالندم جعلها تتساءل بعد فوات الأوان عما إذا كان هذا حقاً ما تريده. هل سيسعدها حقاً أن يوافق ريتشارد على تركها تذهب؟ ولكنها لم تجد فرصة تعثر فيها على جواب لتساؤلها ذاك، إذ ان ذلك العناد المتحجر المألوف عاد يكسو ملامح ريتشارد ليهز رأسه قائلاً بحقد: «كلا يا ايما. إنك ملكي ولن أدعك تذهبين إلا عندما أشاء.»

فخفق قلبها بالراحة لدى سماعها كلماته هذه سرعان ما تبعتها خفقة خوف. ماذا عندما يشاء أن يتركها تذهب؟ وهل ما يزال مصمماً على ابعادها عنه بعد انتهاء الثلاثة أشهر مستبدلاً بها أماندا؟ وغامت عيناها عند هذه الفكرة، لما ينتظرها من متاعب.

فعادت تقول بنفس الرقة: «ألا يمكنك إذن أن تعاملني معاملة طيبة بقية الوقت الذي سنكون فيه معاً؟ لا يمكنني أن أستمر معك كما نحن الآن، بكل هذا الغضب والكراهية بيننا.»

قال ببطء وكأنه يحدث نفسه: «لماذا أشعر وكأنني أسقط في شرك الغواية؟ لا بأس، أيتها الفاتنة الصغيرة. سأكون طيباً معك. ولكن لا تعتمدي على دوام هذا.»

سرى في كيانها موجة غير متوقعة من الحنان. آه كم تحبه بالرغم من كل شيء. حتى انها على استعداد في هذه اللحظة للترحيب بعودته إليها إذا هو فقط ألغى الماضي ووعدها بأن يكون مخلصاً لها إلى الأبد.

قالت تجيبه: «إنني لا أعتمد على شيء في هذه الأيام.»

وبدا للحظة أنه يريد أن يقول شيئاً، ولكن يبدو أنه غير رأيه. فصمت، ثم عاد فاستقام جالساً وهو يقول: «أظن أن عليك أن تنامي قليلاً. إنني سأذهب إلى الغرفة الأخرى كيلا أزعجك.»

استسلمت إلى نوم عميق لم تتحرك فيه لمدة ساعات. وعندما استيقظت أخيراً على لمسة من يد ريتشارد على كتفها، كان الوقت صباحاً، وعندما جلست مستندة إلى الوسائد وهي تترنح وأشعة الشمس المتدفقة من النافذة تغمر سريرها، نظرت إلى الساعة بجانبها. كان الوقت السابعة والنصف. ورأت على المنضدة بجانبها فنجان شاي كان ريتشارد قد أحضره لها، ما جعلها تتأثر بهذه البادرة منه. وكان هو مرتدياً بذلة رمادية وقميصاً أبيض وربطة عنق زرقاء ورمادية اللون، كما كان سلوكه دمثاً رقيقاً وكأنهما كانا زوجين سعيدين طوال السنوات الثماني أو التسع التي مرت بهما. ولم يشر أي منهما إلى ما حدث بينهما الليلة الماضية. ونظرت هي إليه بابتسامة حائرة غير واثقة وهي تمد يدها إلى وشاحها قائلة: «سأذهب إلى الحمام.»

عندما عادت ساورها شعور بخيبة الأمل عندما لم تجده. ولكنها بعد أن عادت إلى سريرها أخذت ترشف الشاي

شاعرة بالانتعاش. وكانت قد استقرت بين الوسائد وهي تتنهد راضية، عندما فتح الباب ودخل ريتشارد حاملاً صينية محملة بالخبز المحمص والمربى، فوضعها على ساقيها ثم جلس على مؤخرة السرير. ولكن لم يمض وقت طويل حتى كان قد أغار على طبقها، وفي النهاية كان قد أتى على معظم الخبز المحمص. وابتدأت ايما تضحك دون أن تستطيع التوقف.

سألها عابساً: «لماذا تضحكين؟»

فقالت شاكية: «إنك دوماً تفعل هذا. تحضر لي الفطور إلى الفراش ثم تأكله بنفسك.»

بدا الشعور بالذنب على وجهه وأعاد إلى الطبق قطعة خبز كان قد اخذها لتوه، ولكن ايما أسرعت تضع يدها على ذراعه قائلة: «كلا، لا تدع الطعام. إنني أحب منك أن تفعل ذلك.»

فتلاقت أعينهما. في الأيام السالفة كان يلقي من يده قطعة الخبز ليطعمها اياها بيده. حتى الآن، كان ذلك الدافع موجوداً في ذلك الوميض من الدفء والدعابة الذي أنار وجهه. لم يكن ثمة أثر فيه لذلك الشجار الذي أفسد عليهما أمسيتهما الماضية. وذكرها هذا فجأة بقصة سمعتها مرة عن الخنادق أثناء الحرب العالمية الأولى عندما حلت الأعياد، فترك الجنود الأعداء أسلحتهم عاقدين هدنة قصيرة أخذوا أثناءها يتبادلون الهدايا. ولاح على شفتيها شبح ابتسامة.

فسألها: «بماذا تفكرين؟»

فلما أخبرته، سألها مكتئباً: «وهل نحن أعداء في حالة حرب؟»

اضطربت بعنف وهي تحدق فيه وقد أدركت أن من المستحيل الاجابة على هذا الجواب. والآن وقد أدركت السبب في ضيق طباعه في بداية زواجهما، ساورتها موجة من العطف والحنان نحوه. كما أن حنانه نحوها عندما كانت مريضة في الليلة الماضية قد أثر في نفسها. إنما في نفس الوقت شعرت بالحزن لقسوته وغطرسته إذ يتمسك برأيه في أن له كامل الحق في أن تكون له علاقات. وبرزت صورة أماندا، اللامعة وما تحمله من تهديد لا يطاق.

برزت أمامها فاشتعلت عيناها الخضراوان وقالت بحدة: «ألسنا كذلك؟»

لم يجب، وانما وقف وأخذ يتمشى في أنحاء الغرفة. وعندما تكلم قال مغيراً الموضوع: «أتريدينني أن آخذ لك موعداً من الطبيب؟»

«صدقني إنني لا أرى داعياً لذلك. ربما الأمر ليس سوى ارهاق، ذلك الذي جعلني أشعر بذلك الدوار. وهذا الصباح أشعر بأن صحتي ممتازة.»

عبس ريتشارد متشككاً، ولكنه قال أخيراً: «لا بأس. سأترك الأمر عند هذا الحد، بشرط أن تعديني بالذهاب إلى الطبيب إذا عاد إليك الدوار مرة أخرى، وانك سترتاحين من العمل فترة طويلة.»

ابتدأت تقول: «ولكن انتقالكم إلى بناية شركة بريرو...»

فقاطعها: «إن كل شيء يسير كما يجب، ويمكنك أن تأتي لترى ما يحدث، ولكنني لن أدعك تشتغلين ساعات طويلة هناك. إنك بحاجة إلى وقت فراغ، وبعض الترفيه عن

النفس، وان تنشئي حياة شخصية لنفسك. هل هذا واضح؟»

فردت قائلة: «نعم.»

«هذا حسن. وإذا أنت توقفت عن الشعور بالقلق بشأن العمل، سآخذك إلى هناك هذا الصباح ويمكنك أن ترضي نفسك حين ترين أن كل شيء يسير كما يجب. ولكن لمدة ساعتين فقط. وبعد ذلك أريدك أن ترتاحي.»

شعرت ايما بالرضى وهي تتكىء في سيارة ريتشارد بي ام دبليو الفارهة المزودة بالوسائد والسجاد، وذلك بدلاً من المجاهدة في زحام المواصلات الصباحي بنفسها. ولكنها عندما وقفت بهما السيارة أخيراً في موقف السيارات القائم تحت الأرض والتابع لمبنى مجمع مكاتبها الجديد الضخم في منطقة الأعمال تولاها شعور بالخشية. كيف بإمكانها مواجهة تحديق موظفيها وهمساتهم عندما تبدو إلى جانب ريتشارد بصفتها زوجته؟ والأسوأ من ذلك، ماذا سيظن موظفو ريتشارد في عودتهما إلى بعضهما؟

ولكن ما كان لها أن تقلق. فعندما صعدا إلى المدخل الأنيق ذي اللونين الرمادي والأصفر في الطابق الأرضي، أفسح لهما عاملان في المكاتب التي تدور فيها أعمال التنظيم، أفسحا لهما الطريق ليمرا وهما يحييانهما: «صباح الخير يا سيد فيلدينغ ويا سيدة فيلدينغ.»

كانت تحية مؤدبة، ولكنها عادية وكأنها جزء من الروتين الصباحي المعتاد. أترى ريتشارد كان أبلغ موظفيه مسبقاً لكي يعدهم لهذا؟ وأجفلت وهي تسير وعيناها إلى الأرض حين رأت أمامها ثلاثة رجال

يكتسحونها بنظراتهم المتفحصة، بينما دهشت عندما شبك ريتشارد ذراعه بذراعها بحركة عفوية عاطفية، وهو يقول: «لقد استلمت شركتي معظم البناية الآن، ولكننا تركنا شركة بريرو في مكان على الطابق العلوي. بعد أن آخذك للتعرف إلى بعض مديري شركتي، يمكنك أن تذهبي لتناول فنجان من الشاي مع الآنسة ماتي.»

مرت الساعتان التاليتان على ايما بسرعة، فقد وجدت نفسها مهتمة حقاً بالاستماع إلى تفاصيل مشاريع البنايات الكثيرة التي قامت بها شركة ريتشارد أثناء السنوات الثماني الماضية، كان من بينها انشاء مجمعات سكنية لمحدودي الدخل في المدينة كان حاز على جائزة، ومشاريع سياحية على الساحل الشمالي، ملاجىء للعجزة تضم خدمات طبية، وغير ذلك كثير. وشيئاً فشيئاً أخذت تدرك أنه لم يكن فقط رجل أعمال بالغ الفطنة ثاقب الرأي، وتاجراً ماهراً ومحامياً خبيراً، ولكنه أيضاً رجل انساني يشعر مع المحتاج.

وعندما دعي ريتشارد إلى مكالمة هاتفية، تابع مدير مكتبه تعداد انجازات الشركة الكثيرة. وداخل ايما موجة من الزهو أثناء حديث الرجل ولكن ذلك سرعان ما تبدد يحل مكانه شعور حزين مع خيبة الأمل. أي حق يجعلها تشعر بالزهو بريتشارد؟ فهو لم يعد زوجها إلا بالإسم كما أنها لم تقم بأي دور في نجاحه هذا. وكل هذا الوضع بينهما ما هو إلا سخرية ومهزلة. وكانت ما تزال تقلب مجموعات صور الأبنية وقد ساد وجهها العبوس عندما عاد ريتشارد ليقف بجانبها يسألها: «حسناً، هل أنت جاهزة للقدوم لتناول

فنجان شاي مع الآنسة ماتي؟ إذ لا يبدو انك تستمتعين بالجلوس في هذا المكتب.»

وجدت سكرتيرة أبيها القديمة الآنسة ماتيلدا بيرس، منحنية على يديها وركبتيها في مكتب فسيح في الطابق الأعلى من البناية، وقد أحاطت بها فوضى لا يمكن وصفها. كانت خزائن الملفات مفتوحة والأوراق متناثرة على الأرض بكاملها بينما الآنسة ماتي منحنية على الأرض كخياطة ملابس سقطت منها محتويات علبة دبابيس. فنظرت ايما بعطف إليها ثم أسرعت تساعد المرأة المسنة على الوقوف.

هتفت الآنسة ماتي وهي تنظر اليها بينما تسوّي بيديها شعرها وعقد اللالىء الذي يتدلى على قميصها الأبيض، هتفت بها: «ايما... ما الذي تفعلينه هنا؟»

ضحكت ايما قائلة: «ولكنني أشتغل هنا هل نسيت؟» وأخذت تقبل السكرتيرة على وجنتيها المتوهجتين وهي تتابع قائلة: «والآن هل ثمة فرصة لتناول فنجان من الشاي أم لا؟»

أجابت المرأة وهي تنظر حولها: «طبعاً يا عزيزتي، هذا إذا وجدت ابريق الشاي. ماذا بالنسبة إليك يا سيد فيلدينغ؟»

قال ريتشارد ضاحكاً: «كلا، إن لديّ عملاً في الطابق الأسفل، وهكذا عليّ أن أترككما معاً لتعويض ما فاتكما.»

نظرت الآنسة ماتي في أثر ريتشارد وهو يغلق الباب خلفه، وقد بدا على وجهها تعبير غريب. حتى انها سارت

على أطراف أصابعها إلى الباب ثم فتحته مرة ثانية لكي تتأكد من أن ريتشارد ذهب حقاً.

فسألتها ايما وهي ترى ما تفعله خفية: «ما الذي تفعلينه؟»

أجابت الآنسة ماتي بندم: «آه، يا فتاتي العزيزة. انك لا تتصورين مقدار الشعور بالذنب الذي أشعر به تجاه كل ما جرى.»

فسألتها ايما بارتباك: «وما هو الذي جرى؟»

أجابت المرأة التي غمرها شعور ذلك الذي كان أفشى أسرار الدولة: «لإخباري السيد فيلدنغ عن انك في مدينة بالي. طوال السنوات التي أمضيتها في هذا المكتب، لم أفش سراً من قبل. كنت خائفة من أن تغضبي مني ولكن السيد فيلدنغ رجل في منتهى الالحاح عندما يريد شيئاً.»

أجابت ايما: «أعرف ذلك. وأنا لا ألومك يا آنسة ماتي. انظري، ذاك هو ابريق الشاي تحت كومة تقاويم شركة بريرو للسنة الماضية. أتريدينني أن أوصله بالكهرباء في مكان ما؟»

أجابت المرأة: «نعم من فضلك يا عزيزتي، وهنالك فناجين في الخزانة، والآن اجلسي ودعينا نتحدث.»

نظرت ايما حولها لتجد جميع كراسي غرفة المكتب تعلوها الملفات وأدوات المكتب ما عدا الكرسي الذي تشغله الآنسة ماتي. وهكذا قفزت جالسة على المكتب مدلية ساقيها، فعلا الابتسام ملامح الآنسة ماتي المتزمتة نوعاً ما، وقالت متأوهة بحنين: «كنت دوماً تجلسين بهذا الشكل عندما كنت صغيرة. أتذكرين كم كنت أنهاك عن ذلك؟»

www.elromancia.com

أجابت ايما ضاحكة: «لم يكن ذاك من قلبك قط. فقد كنت دوماً تمنحينني لوح شوكولاتة بعد ذلك.»

غمزتها المرأة بعينها وهي تمد يدها إلى درج أخرجت منه علبة فيها لوح شيكولاتة ناولته إلى ايما قائلة: «هاكه، استمتعي به. ربما كان هذا آخر ما تأخذينه مني.»

اتسعت عينا ايما وسألتها: «ولكن لماذا؟»

أجابت هذه: «لأنني سأترك العمل. وهذا هو السبب في فرزي لكل هذه الملفات. لقد أقنعني السيد فيلدنغ بالتقاعد مبكراً.»

سألتها ايما ساخطة: «أتعنين أنه دفعك لذلك؟»

أجابت بسرعة: «آه، كلا، كلا. الأمر ليس بهذا الشكل. الحقيقة هي أنني كنت أريد أن أترك العمل منذ مدة طويلة، ولكنني لم أشأ أن أتخلى عنك وقت الشدة، يا ايما. والآن قد طمأنني السيد فيلدينغ بأنه سيتولى أمر كل شيء، كما أنه قدم لي منحة سخية جداً. آه يا ايما، كم أنا مسرورة لأراكما قد تصالحتما، ليس فقط لأجل مصلحتي. إنني أعلم أنه كان ثمة مشكلات في حياتكما الزوجية، ولكنني كنت دوماً أثق بأن السيد فيلدينغ يهتم بك حقاً، وأنه حان الوقت لكي تجدي رجلاً مثله بعد أن كنت تلك الطفلة الشريرة المسكينة. إنني لم أر قط أنه كان لوالدك الحق في أن يأخذك من أمك، ليجعلك في عزلة تامة أثناء نموك. إن هذا في رأيي منتهى القسوة.»

سألتها إيما بحدة: «ماذا؟ ماذا تعنين؟»

فتنهدت الآنسة ماتي: «آه، أعني قضية الوصاية الفظيعة تلك، عندما أخذك أبوك منها وجعل زيارتها لك

بعد ذلك، في منتهى الصعوبة. كان رجلاً بالغ العنف.»

شعرت ايما بصدمة كما لو أن أحداً لكمها على معدتها، قضية وصاية؟ لم يخبرها أحد قط عن ذلك من قبل.

فسألتها متلعثمة: «أتعنين أن أمي كانت تريد أن تحتفظ بي؟»

«نعم، طبعاً كانت تريد ذلك يا عزيزتي، ولكن أباك منع ذلك بكل ما يملك من قوة. وكان لديه المال الذي جعله يفوز بك وهذا في رأيي منتهى القسوة.»

قالت ايما بفتور: «كنت أعتقد أنك تحبينه وتقدرينه.»

ردت عليها المرأة بهزة عنيفة من رأسها: «آه، كلا. كان حقاً يدفع لي راتباً سخياً، ولكن هذا لا يعني أنني كنت راضية عن كل شيء كان يقوم به. إن بإمكان السيد بريرو أن يكون غاية في السوء إذا وقف أحد في طريقه... وفي منتهى الحقد.»

قالت ايما: «طوال تلك السنوات التي عرفتك فيها، يا آنسة ماتي، لم أسمعك تقولين شيئاً كهذا.»

أجابت المرأة: «كلا، وما كان لي أن أقوله الآن. فأنا فخورة دوماً باتخاذي الحرص والحذر. ولكن تركي الوشيك للشركة جعلني أشعر بشيء من الحرية، هذا إلى أنني كنت دوماً أفكر بك وكأنك ابنة أختي المفضلة عندي وليس رئيستي في العمل، خصوصاً عندما تبدين بهذا الشكل، ملطخة وجنتك بالشيكولاتة، دعيني الآن أمسحه لك بهذا المنديل، أيتها الطفلة الفظيعة، مهما كان رأي السيد فيلدينغ.»

فانطلق صوت رجل خلفها يسأل: «رأيي في ماذا؟»

استدارت المرأتان تشهقان ذاهلتين، ثم أطلقت الآنسة ماتي ضحكة خشنة وأجابت: «في منظر زوجتك وهي تتصرف كطفلة صغيرة، فتؤرجح ساقيها، وتدهن وجهها بالشيكولاتة.»

ضحك ريتشارد هو أيضاً، وقال: «السيد فيلدينغ سيتقدم لأخذها إلى حديقة الحيوانات حيث مكانها هناك.»

قالت له: «لا تكن سخيفاً.»

أجابها قائلاً: «إنني جاد في كلامي، انك بحاجة إلى مزيد من الراحة والاسترخاء، كما أنه ليس لدي عمل كثير هذا النهار. بعد أن تنهي شرب الشاي، أظن بإمكاننا أن نذهب إلى حيث نستقل عبارة إلى حديقة الحيوانات، إن الهواء النقي سيفيدك.»

دهشت ايما إذ قاما فعلاً بذلك، كانت حديقة الحيوانات قبل الزواج، هي مكانها المفضل حيث أنه لم يكن مسموحاً لها مطلقاً بزيارتها في طفولتها. فقد كان أبوها يعتبرها مكاناً عامياً ذا روائح كريهة وكان يؤثر فيها دوماً أن ريتشارد كان يطلق لها العنان في الاستمتاع بحلم طفولتها ذاك بالنسبة لهذا المكان. والآن، والشمس تعكس أشعتها الحارة على مياه الميناء ومقدمة العبارة تشق عباب المياه المزبدة الصاخبة، التفتت إليه قائلة بابتسامة: «أتذكر كم كنت تحضرني إلى هنا قبل زواجنا؟»

أجاب باقتضاب: «طبعاً أذكر ذلك، ولهذا فكرت في انك ستستمتعين بوجودك هنا.»

عندما وصلا إلى الشاطىء الشمالي للميناء، تراجع لكي يدع فوج الأولاد الصاخب يندفعون أمامهم ثم أخذ بيد ايما

وهي تنزل السلم. وفوقهما كان المنحدر الصخري قد نحتته الطبيعة سلسلة من الدرجات العملاقة بين مجموعة من النباتات الخضراء. وكان الجو يعبق بشذا اشجار الاوكابتوس وحمل إليهما النسيم أصوات الطيور المختلفة ومختلف أنواع الزئير والصفير. وعندما أصبحت ايما في داخل الحديقة نسيت كل شيء عن حالة زواجها المؤسفة وذلك للبهجة التي تملكتها وهي تطوف في الأنحاء، تتفرج على الفيلة وقرود الشمبانزي. وبدا أن هذه الرحلة هي امتداد للهدنة التي قامت بينهما هذا الصباح، إذ ان ريتشارد لم ينطق بكلمة تزعجها مطلقاً، بل كان يسير بجانبها بكل بساطة وعلى شفتيه ابتسامة هادئة. وأخيراً هبطت ايما جالسة على مقعد خشبي وقد استبد بها الارهاق، ثم خلعت حذاءها متنهدة بارتياح. وجلس ريتشارد بجانبها وقال لاوياً شفتيه: «هل أنت مستعدة للذهاب الآن لتناول الغداء؟ إنني أعرف مطعماً صغيراً رائعاً يطل على البحر في ميدل هاربور.»

فهمهمت حالمة: «يبدو هذا رائعاً. ولكن كيف نذهب إلى هناك دون سيارة؟»

أجاب ريتشارد: «لقد كنت فكرت في ذلك فطلبت من أحد غلمان المكتب أن يحضر سيارتي إلى الموقف الواقع أمام باب مدخل حديقة الحيوانات. وهكذا بإمكاننا الذهاب متى شئنا.»

بعد أقل من ساعة، كانا يملآن طبقيهما في ذلك المطعم الصغير المشرف على الميناء. وعبست ايما مفكرة وهي تنظر إلى شرائح سمك سلمون المدخن،

والقريدس الطازج وأطباق السلطات والدجاج المقلي والروستو. كانت عادة تحب القريدس ولكنها اليوم، ولسبب ما، بدا لها مثيراً للاشمئزاز. ما أغرب هذا. وانتابتها قشعريرة خفيفة وهي تختار بدلاً منه شرائح السلمون المدخن مع سلطة وخبز وأخيراً كوباً من المياه المعدنية. وعندما تبعها ريتشارد عائدين إلى مائدتهما، رفع حاجبيه يسألها بعجب: «ألم تحضري قريدس؟ كنت أظنك شغوفة به.»

فقالت بحزم: «نعم، ولكن ليس اليوم.»

جلس مقابلاً لها ورفع كوب العصير يأخذ منه جرعة قبل أن يهاجم كومة الطعام في طبقه. كان الاثنان جائعين، وكادا ينهيان طعامهما قبل أن يتكلم ثانياً فيسألها: «كيف كان الحديث مع الآنسة ماتي؟»

قالت ايما باسمة: «كان حسناً. ظننت في البداية أنك كنت تخرجها من الشركة برغمها، ولكنها تقول انها تتطلع في الواقع إلى التقاعد. أتعرف يا ريتشارد، انها اخبرتني بشيء غريب جداً هذا النهار؟»

سألها وهو يعصر ليموناً على طعامه: «وما هو؟»

سكتت لحظة تفكر في مبلغ الغرابة في أنها ما زالت ترى من الطبيعي جداً أن تسرّ إلى ريتشارد بشؤونها الخاصة في حين ليس من الممكن أن تخبر بذلك أي انسان آخر.

«قالت إن أبي نازع أمي الوصاية عليّ بعد طلاقهما.»

عبس قليلاً وهو يسألها: «أفعل هذا حقاً؟ وما الغرابة في هذا؟»

أجابت: «حسناً، لم يخبرني أحد بهذا قط من قبل. لا أدري لماذا كانت لدي فكرة بأن أمي هي التي تخلت عني وأنها لم تكن تريدني.»

«فهمت، لا أظن أن فرانك العجوز الطيب هو الذي أوجد هذه الفكرة في رأسك، أليس كذلك؟»

قالت وقد ثار غضبها: «لشد ما هي كريهة طريقتك هذه في الحديث عن أبي كلما جاء ذكره بيننا. إنك تحاول فقط أن تشوه ذكراه، أليس كذلك؟»

أجاب بلهجة جادة: «كلا، إنني لا أحاول أن أشوه ذكراه، إنني أحاول فقط أن أجعلك ترينه على حقيقته بدلاً من ذلك البطل الذي جعلته في مخيلتك، ولكن أرجوك أن تنسي والدك، يا ايما. لقد أمضينا نحن الاثنان وقتاً طويلاً مشغولين به، عندما كان حياً. أليس بإمكاننا بعد أن مات الآن، أن يركز كل منا اهتمامه في الآخر؟»

كان يتكلم وهو يمد إليها يمناه باشارة واضحة للصداقة، وكانت هذه عادة مميزة لديه أرسلت فيضاً من الحنان إلى نفسها. فوضعت يدها في يده بحذر وقد تلاقت أعينهما. كان ينظر إليها بثبات بينما التوت شفتاه بابتسامة باهتة. وابتدأ قلبها يخفق بعنف، وبعد تردد قليل بادلته ابتسامته. وتمنت لو تعرف ما يفكر فيه. كانت ذات يوم، تعرف هذا تماماً. تلك الابتسامة الجانبية الخفية وقد ضاقت عيناه، كانت إشارة إلى أنه تعب من الخصام ويريد المصالحة. ولكنها الآن لم تعد تعرف. قد تكون رغبة حقيقية في المصالحة أو ربما هي ليست أكثر من اغرائها على ترك الحذر جانباً وبهذا يصبح

بإمكانه زيادة تعذيبها. ولكنها قررت ألاّ تجزم في ظنها، فاتسعت ابتسامتها وتألقت عيناها الخضراوان فجأة بالبهجة، وقالت برقة: «لا بأس، يا ريتشارد، دعنا نركز اهتمام كل منا في الآخر.»

كانت الشمس تميل إلى الغروب، وكانت ظلال أشجار المطاط تمتد زرقاء قاتمة، عندما خرجا أخيراً من المقهى. ذلك أنه عندما انهارت الحواجز بينهما، ابتدآ يتحدثان بحرية وتلقائية، عن الأحداث التي تخللت السنوات الثماني الماضية، لقد غمر ايما شعور دافق من الحنان والمودة. توقف فجأة جامداً في مكانه وهما في طريقهما إلى السيارة، وقد بان على ملامحه اهتمام ويقظة بالغين. ثم قال بسرعة: «انتظريني لحظة. هناك لوحة مكتوب عليها للبيع على قطعة الأرض تلك أمام الشاطىء. لن أغيب أكثر من لحظة.»

فتابعت ايما طريقها إلى السيارة، ولكنها ما لبثت أن أدركت أن المفتاح ليس معها. وانتابها شعور غريب وهي تقف في موقف السيارات ذاك حيث كان الجوّ شديد الحرارة. وتمسكت بمقبض الباب تستند إليه بعد إذ شعرت بإحدى حالات الدوار تلك تجتاحها. مالت على السيارة بكل ثقلها وقد انتابها شعور بالغثيان وهي لا تكاد تشعر بسخونة المعدن الذي أحرق راحتيها أو بأشعة الشمس التي كانت تتألق على صفحة المياه الزرقاء. تنفست بعمق ثلاث أو أربع مرات، ثم ابتدأ الدوار يتراجع، وتملكتها الحيرة. ما الذي جرى لها؟ إنها لم تشعر بمثل هذا في حياتها هذا الغثيان

المفاجىء... التقزز والاشمئزاز لرؤية بعض أنواع الطعام... ثم وببطء ابتدأت شكوك لا يمكن تصديقها تتكون في ذهنها.

هل من الممكن أن تكون حاملاً؟

www.elromancia.com

الفصل السابع

كانت فكرة غريبة زعزعت هدوء إيما وغمرتها بمشاعر لم تعرفها من قبل. كان أول شعور انتابها هو البهجة والسعادة، ما جعلها تحس بنفسها تحلق فوق السحاب، تلاه رجفة وغثيان حين تملكها شعور بالذعر والهلع، إنها لم تدرك قبل الآن مبلغ تلهفها إلى حمل طفل ريتشارد. ولكن كيف بامكانها ذلك والوضع على ما هو عليه بينهما؟ فرغم أنهما كانا سعيدين عصر هذا النهار، فما زالت علاقتهما يشوبها كثير من الجراح. الأحقاد القديمة ما زالت لم تجد حلاً، نقص كامل في الثقة بينهما، القلق المستمر من كنه العلاقة التي تربطه بأماندا... ولكنها وبشكل لا يعرف المنطق، كانت ترغب في طفله هذا بعنف يفوق كل شيء رغبت فيه في حياتها باستثناء ريتشارد نفسه. وبرزت في ذهنها صورة لنفسها متكئة بين الوسائد وبين ذراعيها طفل حديث الولادة. وريتشارد بجانبها يعانقهما معاً ويبتسم لها بزهو. وصرفت بأسنانها وهي تعترف بأن الواقع قد يكون مختلفاً جداً، إذ تكون وحدها مع الطفل، بينما ريتشارد قد أصبح مطلقاً وقد تزوج امرأة أخرى هو الآن معها في شهر العسل.

«إيما، هل أنت بخير؟»

كان هذا صوت ريتشارد قطع عليها أفكارها، فطرفت بعينيها وألقت نظرة على نفسها في مرآة السيارة الجانبية.

كان وجهها شاحباً قليلاً. وازدردت ريقها بصعوبة متكلفة الابتسام ثم أجابته قائلة: «إنه دوار فقط.»

«لقد أجهدت نفسك، أيتها الحمقاء الصغيرة. تعالي واجلسي قليلاً.»

كان صوته حازماً، وذراعه قوية عطوف وهو يقودها نحو مقعد منعزل عند أجمل ظليلة تشرف على البحر، وشيئاً فشيئاً، ابتدأت الأرض تستقر تحت قدميها وعاد الى وجنتيها بعض الدفء.

قال ريتشارد بارتياح: «هذا أحسن، ماذا جرى لك، يا إيما؟ لقد جعلتني قلقاً حقاً.»

فترددت، أوشكت أن تخبره بشكوكها، ربما سيشتد فرحه، وسروره، أو يبعدها عنه قليلاً لينظر إليها بزهو لا يصدق وهو يصرخ ظافراً، وربما لن يفعل ذلك، وفكرت في تلك الكلمات الجارحة التي قذفها بها عند البحيرة في مدينة بالي، فانتفضت، كلا، لا يمكنها احتمال رفضه لها اذا هي أخبرته، الأفضل أن تنتظر، وعلى كل حال، لم تكن متأكدة من الأمر، وقالت: «لا شيء هناك.»

«حسناً، أريدك أن تذهبي إلى طبيب.»

«لا ترغمني على ذلك يا ريتشارد، سأفعل ذلك إذا شعرت بالدوار مرة أخرى.»

«أتعدينني؟»

«لا بأس، اعدك بذلك.» لقد عادت إليها قواها الآن بسرعة وابتدأ اهتمامه يشعرها بالتوتر، فقالت: «إسمع يا ريتشارد، إنني بخير صدقني. وسأكون في صحة جيدة للذهاب إلى المكتب صباح الغد.»

تنهد وقال بصوت هو مزيج من السخط والدعابة: «لا أريد أن أخيفك، ولكنك ما زلت تبدين شاحبة اللون. لماذا لا تأخذين إجازة لعدة أيام؟ لماذا لا تذهبين لتناول الغداء مع أمك غداً، أو تقومين بشيء للتسلية؟»

فسكتت إيما تفكر في اقتراحه هذا. ولكن ولعها بأمها أثناء السبع سنوات التي تلت وفاة أبيها، جعلها تؤجل رؤيتها في الوقت الحاضر. ذلك أن أمها كانت بالغة الفطنة والدهاء بحيث أن نصف ساعة مع ابنتها وحدهما ستمكنها دون شك، من استخلاص القصة الحقيقية لعودتها إلى زوجها. وانتفضت إيما لمجرد هذه الفكرة. حتى الكذبة اللبقة التي كانت وريتشارد، قد حاولا ترميم زواجهما بها لم تقنع أمها عندما اتصلت بها هي عقب عودتها من بالي فقالت لها: «بعد ثماني سنوات؟ أرجو أن تدركي ما تقومين به، يا إيما...» كلا، إنها قطعاً لا تشعر بالجرأة لتناول الغداء مع أمها.

قالت له: «إن أمي مشغولة جداً حالياً.»

فألح عليها قائلاً: «تناولي الغداء إذن مع أيّ صديقة لك.»

فابتسمت بأسى وهي تقول: «ليس لدي صديقات. كنت مشغولة بعملي أثناء السنوات السبع الماضية بحيث لم أجد وقتاً لاتخاذ صديقات.»

ففكر ريتشارد قليلاً، ثم قال: «حسناً، وماذا بالنسبة لتلك الفتاة التي كانت تسكن بالقرب منا في وولومولو؟ كنت منسجمة معها تماماً. تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر والوجه المرقط بالنمش التي كانت متزوجة من طالب في الحقوق، هو نيكولا وشيء آخر.»

فاندفعت إيما تقول: «نيكولا سميذرز.»

«هذا صحيح. ماذا كان اسمها؟ جيني؟ جيل؟»

قالت إيما: «جيني. نعم. كانت فتاة ظريفة. ولكنني قطعت الاتصال بها. فمنذ وفاة والدي لم أكن أجد وقتاً للتنفس، فكيف بالخروج مع أصدقاء؟»

فهز ريتشارد رأسه مستنكراً وهو يقول: «إن حياتك فوضوية، يا إيما. لقد تخليت عن كل شيء مهم في سبيل المال والسلطة.»

فقالت محتجة: «ولكن هذا لم يكن ما اخترته لنفسي. لقد اندفعت الكرة إلى يدي، فكان عليّ أن استمر في الركض.»

«حسناً، لقد حان الوقت لكي تقفي. عليك أن تقرري ماذا تريدينه من الحياة. اسمعي، لماذا لا تبدإين بالقيام ببعض الأعمال الصغيرة التي تحبينها؟ تأخري في النوم صباحاً، ابدإي في تنظيم الحديقة، حاولي أن تتعرفي إلى أناس جدد. إن هذا سيفيدك يا إيما.»

بقدر ما كانت إيما تكره تدخل ريتشارد في شؤونها، اعترفت لنفسها الآن بأنها كانت نصيحة جيدة وقد ابتدأت بها في الصباح التالي. فهي لم تستيقظ قبل التاسعة صباحاً وكان ريتشارد قد سبق وذهب إلى عمله. وبعد حمام طويل، ارتدت بنطلون جينز وقميصاً محبوكاً، ثم هبطت السلم إلى المطبخ. ودهشت إذ وجدت المائدة معدّة، وقد علتها فطائر طازجة وزبدة وإناء مربى الكرز وقهوة في التيرمس الذي كان مسنداً إليه ورقة تحوي ملحوظة خفق قلبها لرؤيتها. هل هي رسالة حب؟ كلا. لقد كان

مكتوباً عليها بأحرف كبيرة (لا يوجد عندنا حليب) والتوت شفتا إيما. ذلك أنه في بداية زواجهما، تملكت ريتشارد عادة وهي أن يترك لها ملحوظة مكتوبة عن كل شيء نسيت هي شراءه من متجر الأغذية. مئات الملحوظات. ملحوظات كانت تواجهها في كل زاوية أو شق في منزلهما. والآن، سارت، وهي تبتسم، إلى خزانة أدوات المائدة، وفتحت أبوابها. وكما كانت توقعت، كان ثمة ملحوظة في علبة الكورنفلكس مكتوبة بأحرف حمراء كبيرة تقرر ذلك الواقع الفظيع، لا يوجد عندنا حليب، وأخرى مثلها تماماً، تنتظر في الثلاجة، بينما نسخ طبق الأصل كانت مختبئة في طبق الخبز، خزانة البياضات، خزانة الأواني، درج أدوات المائدة على غطاء سلة الغسيل، وعلى الصفحة الأولى من الجريدة. وعندما جلست أخيراً لتتناول طعام الفطور، ابتدأت تضحك بضعف. إنها على كل حال، لا تشرب القهوة بالحليب ولكن ريتشارد يفعل ذلك. وتذكرت حادثة مماثلة وقعت منذ سنوات حين ثارت لعله هذا ما جعلها تطارده إلى غرفة النوم حيث رفعت الوسادة وأخذت تضربه بها على رأسه وإذا بورقة قد رفرفت خارجة من تحت كيس الوسادة مكتوب عليها لا يوجد عندنا حليب. وعندما انتهيا أخيراً بصراعهما، نظرت إيما وإذا بورقة تحت المصباح بجانب السرير مكتوب عليها لا يوجد عندنا حليب. لقد كان ريتشارد معتوهاً أحياناً، ولكنه كان يعرف كيف يضحكها في النهاية بقدر ما كان قد سببه لها من حنق.

ما أن أخذت في تناول طعامها، حتى عادت أفكارها

إلى جيني سميذرز مرة أخرى. نعم، الحق مع ريتشارد. لقد كانت دوماً تحب جيني وإنه لأمر فظيع أن يمضي المرء حياته في العمل بحيث لا يترك له وقتاً للصداقة. هذا إلى أن جيني كانت مستمعة جيدة للغاية. هذا وبينما كانت تفكر في ذلك، إذا بها تسمع رنين جرس الباب فقامت لتفتح الباب.

وهتفت: «لقد كنت أفكر فيك لتوي.»

وقفت جيني عند الباب ضاحكة، وما زال وجهها مليئاً بالنمش وعيناها العسليتان تتألقان بمكر ضاحك وجسمها كله يشع بالحيوية، كانت تبدو تماماً كما تتذكرها إيما، ما عدا أنها كانت تبدو حاملاً في شهرها السابع على الأقل.

قالت: «لقد اتصل بي ريتشارد هاتفياً، وقد دعاني لزيارتك. آه، يا إيما، ما أجمل أن أراك مرة أخرى.»

تعانقتا بحرارة، وأدخلت إيما جيني إلى المطبخ، وهي تسألها: «اتريدين فنجاناً من القهوة؟»

«نعم من فضلك، مع الحليب إنما دون سكر.» فكادت إيما تنفجر ضاحكة، لتقول بعد ذلك: «آسفة، لا يوجد عندنا حليب.»

نظرت إليها جيني بعجب وقالت: «إذن، فليكن فنجان شاي خفيف ودون حليب.»

احضرت إيما إبريقاً من الشاي، ثم جلستا إلى مائدة المطبخ، كانت خائفة في البداية من أن السنوات الماضية قد تكون جعلت بينهما شعوراً من الحيرة والارتباك. ولكنها سرعان ما شعرت بالسرور إذ بدا أن الصلة بينهما ما زالت

هي نفسها التي طالما استمتعتا بها منذ سنوات عندما كان زوجاهما طالبين في الحقوق.

تناولت جيني فطيرة ابتدأت تأكلها وهي تنظر إلى إيما بفضول وهي تقول بصراحة: «لا أستطيع أن أصدق أنكما، أنت وريتشارد، قد عدتما معاً. ما الذي جرى؟»

ترددت إيما، ولكن جيني كانت تبدو صديقة ودوداً محبة ومليئة بالاهتمام، وبالغة الظرف بحيث وجدت نفسها تنطلق بالحديث دون توقف. وفي وسط الحديث، قفزت إيما تتناول علبة المناديل الورقية لتمسح عينيها بواحدة منها، ثم تعود إلى حديثها، وعندما أنهت قصتها، كانت قد تناولت ثلاثة فناجين من الشاي كما استعملت عشرة مناديل ورقية.

وسألتها جيني بصوت عنيف: «إذن، تبعاً لكلامك، قد أعد ريتشارد كل هذه الخطة لاعادتك إليه لكي يكمل انتقامه منك، ومن ثم يهجرك بعد ذلك.»

فأومأت إيما برأسها موافقة بهمهمة مأساوية.

قالت جيني: «لا أصدق ذلك.»

«بل هذا صحيح، لقد أخبرني بأن هذا كل ما يبغيه، ثلاثة أشهر وبعد ذلك الطلاق.»

مدت جيني يدها إلى فطيرة أخرى وهي ترد عليها متشككة: «ربما هذا ما يريدك أن تعتقدي به، وربما يعتقد به هو نفسه، ولكنها ليست هي الحقيقة. لا يمكن أن يكون ذلك، فقد كان مجنوناً بحبك يا إيما.»

عبست وهي تتنهد قائلة: «كان... ولكنه لم يعد يحبني.»

قالت جيني مفكرة: «أنا لست متأكدة، ربما مازال يحبك

في أعماقه. ولكن هذا الحب هو الذي يجعله يشعر بالغضب والاضطراب والحقد. وعلى كل حال، فقد كنت أسأت حقاً إليه إساءة بالغة، وذلك بالهرب مع نايجل ويلينغس.»

فسألتها إيما ساخطة: «أهذا ما أخبرك به ريتشارد عني؟»

«نعم، أليس هذا صحيحاً؟»

تململت إيما بضيق وقالت معترفة: «نوعاً ما، لقد كانت لي علاقة قصيرة مع نايجل، ولكن فقط بعد أن أصبح ريتشارد غير مخلص لي. لم أستطع احتمال ذلك وأردت أن أعيد إليه الضربة. ومضت فترة حاولت أن أقنع فيها نفسي بأن في إمكاني أن أحب نايجل، ولكن سرعان ما أدركت أن ذلك غير صحيح.»

فصفرت جيني بفمها، ثم قالت: «يا لها من فوضى أفسدت كل شيء، إنما مع ذلك، قد انتهت تماماً وأصبحت شيئاً من الماضي.»

فقالت إيما بوحشية: «يا ليتها كانت كذلك. إنما حتى انني لست متأكدة من هذه الحقيقة. إن لدي شعوراً فظيعاً بأن ريتشارد لديه صديقة حالياً. وهي محامية فاتنة قديرة تدعى أماندا موريس. حتى انها سكنت في هذا المنزل فترة قبل عودتي.»

هتفت جيني باشمئزاز: «إيما، عليك أن تضعي حداً لهذا. لا يمكنك أن تستمري على هذا النحو من التعاسة والشك.»

أجابت إيما: «أعلم ذلك. حتى ان الأمر أسوأ مما تظنين. فأنا أظن أنني حامل.»

www.elromancia.com

وأخبرت جيني عما تشعر به من أعراض كالغثيان والدوار.

قالت جيني: «انخفاض في ضغط الدم. لقد أصبت أنا بهذا في شهوري الأولى أيضاً. آه يا إيما، إذا كنت ستنجبين، فيجب أن تضعي حداً لكل مشكلات حياتك.»

«ولكن ماذا بإمكاني عمله؟»

«ما الذي تريدين عمله؟»

سكتت إيما مذعورة. كان السؤال في منتهى البساطة، ولكنه أيضاً بالغ الصعوبة. ما الذي تريده هي بالضبط؟

سألتها جيني: «أما زلت تحبينه؟»

فالتقطت قطعة الورق التي تذكر الحليب وقرأتها. وبدت على وجهها ابتسامة قصيرة باهتة سرعان ما تلاشت وهي تلوي شفتيها. أهو الحب؟ تلك الممازحات المشتركة؟ شعورها بالزهو لإنجازاته؟ الحنان الصامت الذي يلفهما معاً أحياناً بقوة غير مرئية؟ لم تكن واثقة ثم عادت فتذكرت ماذا سيكون عليه شعورها لو أن ريتشارد هجرها الآن. الحزن، الشعور بالوحشة، التأكد من أن الحب والبهجة في حياتها قد تلاشيا إلى الأبد. ربما كرهته لظلمه لها وخطأه في حقها، ولكن ليس هناك رجل بإمكانه أن يسرق قلبها كما سرقه ريتشارد. أليس هذا هو الحب؟

وأخيراً أجابتها قائلة: «نعم. إنني أحبه. لا أدري إذا كنت أريد أن أحبه، ولكن هذا حاصل فعلاً.»

«وهل تريدين أن تحتفظي به زوجاً لك، أم تفضلين أن تتخلي عن الكفاح وتتركيه لأماندا؟»

ذهلت إيما لموجة السخط التي غمرتها لدى سماعها هذا

السؤال. إن ريتشارد زوجها، وليس زوج أية امرأة أخرى. إنها لن تسمح لمحامية ماكرة عنيدة بأن تسلبها إياه.

وقالت: «بل أريد أن احتفظ به.»

«إذن فإن عليك أن تواجهيه. تكلما معاً. عالجا أموركما. أخبريه بما تريدين واستمعي لما يقوله. إن الزواج ليس أمراً سهلاً يا إيما. إن كل الأشياء التي تبدو مشكلات تافهة قد تتحول إلى مشكلات كبيرة، إذا أنتما لم تتحدثا عنها. عليك أن تناقشيها، كي تتخلصي منها وتعالجي الآلام.»

تنهدت إيما ودفعت بابريق الشاي نحو جيني وهي تسألها: «كيف أصبحت بهذه الحكمة؟ لا بد أنكما أنت ونيكولا تتمتعان بزواج رائع.»

فعضت جيني شفتها، وقالت: «في الواقع أننا لم نعد متزوجين الآن.»

فشهقت إيما: «ولكن الطفل...»

قاطعتها جيني: «إنني سأربيه وحدي. لقد تقدم إلي خاطب رغم أنني حامل، ولكنني رفضت. لقد تركت نيكولا لأنني كنت ظننت نفسي أكرهه. ولكنني كنت مخطئة. كل ما كان بيننا من مشكلات صغيرة لم نحاول معالجتها وقد فات الأوان الآن لأن نيكولا قد تزوج من امرأة أخرى. لهذا لا تسمحي بأن يحدث لك ما حدث لي، يا إيما. إذا كنت ما تزالين تحبين ريتشارد، فغذي ذلك الحب وامنحيه الفرصة.»

عندما خرجت جيني أخيراً، جلست إيما على الأريكة وضغطت صدغيها بأصابعها. كانت تشعر في أعماقها بأن

نصيحة صديقتها ممتازة، وتاقت نفسها إلى اتباعها بأية وسيلة. لو أن بامكانها فقط أن تحطم الحواجز التي بينهما وتتكلم إلى ريتشارد.

شعرت بأن مشكلاتهما في طريقها إلى الحل ولكن الخشية والكبرياء الجريحة يمنعانها من ذلك. ماذا لو كانت جيني مخطئة؟ ماذا لو أن ريتشارد حقاً لم يعد يحبها وهو فقط يحاول إذلالها وإيلامها ولماذا عليها أن تعاني من سخريته للمرة الثانية؟ وبعد، لقد سبق وتخلت عن حرصها ذات مرة واخبرت ريتشارد أنها تحبه. فماذا جلب لها هذا؟ ليس سوى مجادلات جارحة وتجديد كل الاتهامات الماضية والمرارة. صحيح أن ريتشارد قد أراها رقة أحياناً عندما كانت تشعر بالمرض والدوار، ولكنه لم يعتذر قط عن تلك الأشياء القاسية التي كان قالها لها. أليس المفروض أن يبدأ باجراء المصالحة أن يتراجع عن موقفه وأن يعتذر إذا كان حقاً يهتم بها؟ وارتجفت إيما. ليس في خبرتها ما يشير إلى أن ذلك من المحتمل أن يحصل. فإذا كان هناك من سيقوم باختراق هذا الطريق المسدود بينهما، فإنه هي على الأرجح. ولكن ليس بامكانها ذلك. إنها ببساطة ليس بامكانها مواجهة شوط آخر من الإهانات. لا بد أن يكون هناك وسيلة أخرى... ماذا لو حاولت أن تريه من دون كلام، مقدار رغبتها في نجاح زواجهما. إن بامكانها أن تبقى باردة معه انما تظهر الصداقة، وتتودد إليه وذلك من خلال إحياء هواياتهما القديمة وتصرفاتهما التي كانا يحبانها...

ظنت إيما في البداية أن هذا الأمر في طريق النجاح.

فأعلمت ريتشارد بأنها ترحب باصدقائه في المنزل في أي وقت، وسرعان ما أصبح المكان يعج بالحركة الاجتماعية. اكتشفت إيما أنه يحب أن يختلط بكل أنواع الناس من الوزراء ورجال الأعمال، إلى الأصدقاء القدامى من أيام عمله في البناء. وأصبحوا يمضون أياماً كثيرة من أيام الصيف الطويلة الحارة، في حفلات الشواء أو مبحرين في الميناء، بينما تقام في الليالي دعوات عشاء خاصة لاثنين في مطاعم فخمة.

وكذلك شجعها ريتشارد على اتخاذ أصدقاء شخصيين. ثم بمساعدة جيني، سرعان ما وجدت إيما نفسها في وسط نساء ذكيات مضيافات مليئات بالحيوية.

عدا عن حياتهما الاجتماعية هذه كان لدى ريتشارد وإيما بيتهما وأعمالهما لتزيد من تقاربهما. ومع أنه أمرها بأن تأخذ استراحة طويلة من العمل، إلا أنه لم يكن لديه مانع من إحضار عمل من المكتب إلى البيت لمناقشته معها، فأمضيا عدة أمسيات نشطة في مكتبه يتناقشان في مشاريع جديدة أو اتجاهات في المستقبل لشركتيهما. هذا بجانب أن الاصلاحات في المنزل كانت منبع استمتاع لكل منهما. فكانا يسران بالانكباب على كراسات تناسق الألوان، يختاران الأثاث معاً خاصة الآن حيث أن بامكانها شراء ما يعجبهما منه مهما كان ثمنه. حتى ان ريتشارد ساعدها في إصلاح الحديقة وبيت النباتات الزجاجي واللذين كانا منبع البهجة الحقيقي لإيما. وفي الواقع أمضى عصر يوم أحد ساعتين في الحديقة ينزع منها الأعشاب الطفيلية وذلك ليجعلها مفاجأة لها. وقد نجح

www.elromancia.com

تماماً في ذلك. ولكن قلبها لم يطعها في أن تخبره بأنه لم يفعل سوى انتزاع كل فسائل النرجس التي كانت غرستها منذ أيام.

كان هناك أشياء أخرى تبعث على الأمل. لقد عادت النكات القديمة إلى التداول بينهما، والأشياء التي لم يكن يفهمها سواهما هما الاثنين، استعادة ذكريات الأيام العصيبة الماضية، إشارات قليلة بدت حافلة بالمعاني. إن بامكان ريتشارد هذه الأيام أن يتناول طعامه في المطاعم الغالية ولم يعد ثمة حاجة به إلى أن يأخذ طعامه معه إلى العمل. ولكن إيما فاجأته مرة بعلبة معدنية تحتوي على كل الطعام الذي كان يحبه قديماً... خبز الزيتون، باسترما، أرضي شوكي.

وفي تلك الليلة، عندما عاد ريتشارد من عمله، لم يقل شيئاً وإنما كان يحمل لها هدية، باقة من الورود الحمراء ملأ شذاها الجوّ أياماً بعد ذلك. وبطبيعة الحال، ما زال يخيب أملها أن ريتشارد لم يكن يتحدث إليها أبداً عن مشاعره نحوها. ما زال لم يبدأ بعد في رأب الصدع الذي بينهما، ولكن إيما استمرت في التعلق بالأمل. من المؤكد أنه لا يستطيع ان يحب أماندا حقاً ثم يتصرف مع زوجته بمثل هذه العواطف العاصفة. إنما إذا كان ما زال يحبها، لماذا لا يخبرها ذلك بكل بساطة؟

مضت عدة أسابيع كانت إيما تشعر أثناءها ببهجة وكأنها تنزلق فوق ثلج بالغ الرقة، فتتدحرج فوقه بخفة العصفور، وقد سحرها احساس متعذر تفسيره بالمرح والفرح، ما أنعشها للغاية. إنما طوال الوقت، كان يتفاقم في

نفسها احساس بأن هذا الهروب السعيد من الواقع سرعان ما سيصل إلى نهاية، وان عليها أن تواجه الحاجة إلى عمل مؤلم. ذلك أن هنالك قضية لم يعد بامكانها تجاهلها أكثر من ذلك، ما يتوجب عليها معها أن تسوي مشكلاتها الزوجية نهائياً.

لقد تأكدت الآن من أنها حامل. فكل الدلائل تشير إلى ذلك.

بعد مضي أكثر من شهر على عودتهما من مدينة بالي، اتخذت إيما خطوة صعبة هي أخذ موعد لإجراء فحص للحمل. كان مجرد القيام بأخذ الموعد هذا ما أعاد فوضى المشاعر عندها إلى العمل، فمن البهجة والانتعاش، إلى الخوف الشديد، إلى التوجس والقلق على نفسها. وفي صبيحة اليوم المحتوم كانت يداها وهي ترتدي ثيابها ترتجفان من الخوف... أو لعلها الاستثارة؟ وكانت النتيجة أن صندوق المجوهرات سقط من يدها فتناثرت قطع الحلي، الخواتم والأساور والقلائد، كل ذلك على السجادة. وانفجر ريتشارد ضاحكاً وهو يهز رأسه بينما وقفت هي دون حراك، هبط هو على ركبتيه وابتدأ بالتقاطها. وعندما وقعت يده على اسورة ذهبية ثقيلة مرصعة بالياقوت حبست إيما أنفاسها بشهقة حادة. شعرت وهي تقف بقشعريرة باردة تسري في كيانها. وتجمدت في مكانها. كيف بإمكانها أن تثق به مرة أخرى وهذا الشاهد القاسي على الماضي ملقى في راحته دون اكتراث.

سألها وهو يرى نظراتها المذعورة: «ماذا حدث؟»

فهمست: «ألا تعرف؟»

www.elromancia.com

«كلا. ما هذا الذي لا أعرفه؟»

أغمضت عينيها برهة وهي ترتجف. لتقول بعدها بلهجة الاتهام: «أظنك نسيت كل شيء عن هذه الإسورة.»

فهز كتفيه كمن لا يفهم شيئاً وهو يقول: «ربما يجب أن أتذكر، ولكنني لا أدري لماذا تحدقين فيها وكأنها أفعى سامة. أتراني كنت أعطيتك أنا إياها؟»

«لم تعطها لي أنا. كلا.»

فتأوه ساخطاً وهو يلقي بالاسورة في صندوق مجوهراتها وينهض وهو يقول: «إذا كنت أسأت إليك بشكل ما من ناحية هذه الاسورة فأنا آسف، ولكن ليس لدي وقت لحل الغاز تتعلق بمثل هذه الأشياء التافهة. هل ستتناولين الغداء معي اليوم يا إيما، أم لا؟»

أشياء تافهة؟ واغرورقت عينا إيما بدموع ساخنة وهي تعض شفتها، تجاهد في تمالك مشاعرها الصاخبة المضطربة. كان هذا دليلاً آخر جعلها تتأكد من أنها حامل. فهي عادة لا تبكي بسهولة إنما هذه الأيام تشعر على الدوام برغبة في البكاء لأتفه الأشياء فكيف وعندها الآن سبب وجيه لذلك.

وردت عليه غاضبة: «كلا. لن أفعل. إن لديّ موعداً مع الطبيب الساعة الثانية عشرة.»

«موعد مع الطبيب؟ كنت أظن أنك قد تحسنت؟» كان صوته خشناً وقد بدا الاهتمام في نظراته.

«حسناً، كنت مخطئاً في ظنك.»

ولم يبد أن لهجتها العاصفة قد أزعجته بشيء، وإنما العكس تماماً. لقد ظهر الاهتمام في عينيه جلياً وهو يتقدم

نحوها ليمسك بذراعيها، وقال بصوت خشن: «إيما... إذا كنت مريضة، إذا كنت تعانين من شيء ما، فيجب أن نواجه المشكلة معاً، لا ان نتشاجر بسبب أشياء تافهة مثل هذه. أخبريني يا حبيبتي.»

حبيبتي... لقد مضت سنوات منذ كان يدعوها بهذه الكلمة بدافع آخر غير التهكم والسخرية... كما أن وجهه متوتر مليء بالتوجس والخشية وكذلك الحنان والرغبة في الحماية، ما جعل قلبها يخفق بعنف. هل هذه هي اللحظة التي كانت تنتظرها؟ اللحظة التي عليهما أن ينهيا بها حربهما؟ وبزغ في كيانها أمل مؤلم مضطرب فازدردت ريقها بصعوبة. وابتدأت تقول: «ريتشارد، أظن أنني...»

تصاعد رنين الهاتف.

ودون أن يحول عينيه عنها، اتجه ريتشارد نحو الهاتف ورفع السماعة قائلاً باختصار: «فيلدينغ.»

فابتدأ سيل جارف من الحديث في الناحية الأخرى من الخط. وتنهد ريتشارد وقال عابساً: «لا بأس، يا أماندا. إنني أوافقك على أن هذا أمر مستعجل. ان التساهل بالنسبة إلى الممتلكات هو شيء يجلب الصداع. أخبري البائع...»

توترت إيما، واندفعت نحو منضدة الزينة حيث جلست تتظاهر بالانشغال بزينتها وهي تجاهد في ان تتوقف عن الصرف بأسنانها. تباً لأماندا تلك. لماذا لا تفتأ تتصل بريتشارد إلى البيت، وحتى لو كان الأمر يتعلق بمجرد العمل، لماذا لا يتملص منها ريتشارد طالباً تأجيل الحديث، خصوصاً في مثل هذه اللحظة الهامة؟ وأخذت

تزين وجهها بأصابع مرتجفة ما جعل وجهها يبدو ملطخاً فأخذت تنظر إلى نفسها بذعر. وجاء ريتشارد وقد أنهى المكالمة ليضع يديه على كتفيها مرة أخرى قائلاً باختصار: «هناك أشياء علينا أن نتحدث عنها. إن موعد الطبيب هذا...»

كان قلب إيما ما يزال يخفق بعنف، وللحظة ساورتها رغبة في أن تندفع بافشاء كل ما كان يقلقها. عن حبها له... عن رغبتها في زواج حقيقي... وعن أنها حامل بطفله، ولكن كرامتها أبت عليها أن تطلق العنان لنوبات هستيرية ستعتريها في الوقت الذي من المحتمل فيه تماماً أن يهرب ريتشارد آخر النهار مع أماندا. وحدثت نفسها بأنها لو خسرت كل شيء، فستبقى لها كرامتها على الأقل. لقد عاهدت إيما نفسها على ذلك. وأخذت نفساً عميقاً وهي تقف نافضة عن كتفيها يدي ريتشارد وهي تقول بهدوء لم تكن تشعر به: «ليس الآن. إن عليّ أن اذهب إلى المدينة، كما أن لديك عملاً عليك أن تقوم به. لا تقلق يا ريتشارد، إنه لا يعدو أن يكون فحصاً عادياً.»

عرض عليها أن يوصلها بسيارته، ولكنها رفضت مفضلة أخذ سيارتها ليكون لديها مزيد من الحرية في التحرك. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى عيادة الطبيب، كانت قد نسيت كل شيء عن ريتشارد وأماندا وسط فيض الآمال والمخاوف بالنسبة إلى فحص الحمل القادم. وعندما سمح لها بالدخول إلى مكتب الطبيب متأخرة نصف ساعة، شعرت بخيبة أمل إزاء لا مبالاته وهو يحدق إلى نتيجة الفحص في يده. ولما لم تستطع الصبر اكثر من ذلك، اندفعت تسأله:

«حسناً، يا دكتور؟» فابتسم لها هازلاً، ثم أومأ برأسه ببطء: «مبروك يا سيدة فيلدينغ. أظن أن بامكاننا أن نحجز لك مكاناً في مستشفى الولادة في حوالي التاسع من شهر تشرين ثاني (نوفمبر).»

فقفزت إيما عن مقعدها وهي تطلق صرخة ذهول وانفعال، ثم ابتسمت للطبيب ببهجة غامرة. حتى مخاوفها من ناحية ريتشارد قد تلاشت في غمرة هذا الفيض من السعادة التي استولت عليها.

وصرخت: «هذا رائع.»

وعندما خرجت من العيادة كانت ما تزال تشعر بأنها تسير فوق السحاب، وهي تتجه نحو الشارع الجانبي الذي كانت أوقفت سيارتها فيه. ثم تذكرت شاعرة بالضيق، أنها لا بد نسيت وضع نقود في عداد موقف السيارات. ولم يكن هناك مناص من مخالفة كان شرطي العداد قد أخذ في كتابتها لها. فساورتها لحظة ضيق ما لبثت أن تلاشت. ما أهمية ذلك على كل حال في هذا النهار بالذات، إنها حامل وسيكون لها طفل. وأشرق وجهها بابتسامة كبيرة وهي تتجه نحو الشرطي الذي بادرها بالسؤال: «هل هذه سيارتك؟»

فأومأت برأسها.

قال وهو يقطع التذكرة ويسلمها لها: «آسف، يا سيدتي. لقد سبق وكتبت رقم لوحة سيارتك ولا يمكنني تغييرها الآن.»

قالت وهي ما تزال تبتسم: «لا بأس بذلك.»

عندما أصبحت إيما داخل السيارة، انخرطت في

الضحك. انني مجنونة. فالفرح يكاد يذهب بعقلي. لم أكن أصدق أن من الممكن أن يحدث هذا لي، وها قد حدث الآن... يا ليت ريتشارد معي ليشاركني هذه الفرحة... وأعادتها هذه الفكرة إلى رشدها بصدمة عنيفة. ريتشارد. ما الذي ستقوله له. وتحركت بالسيارة تقودها، ولكنها وجدت أن ليس بامكانها التركيز. فكرت في أن تذهب مباشرة إلى مبنى شركتها فتندفع إلى داخل مكتب ريتشارد ثم تخبره بالأمر حالاً، ولكن المنطق ألجمها. فهذا ليس بالأمر الذي تريد أن تتحدث به في جو المكتب الصاخب حيث من الممكن أن يدخل عليهما الموظفون في أي لحظة. كلا من الأفضل أن تتمسك بالهدوء وتنتظر إلى حين عودته إلى البيت مساء. عند ذلك لا بد أن يجلسا ويحاولا حقاً وضع الحلول لمشكلاتهما.

لن يكون الأمر سهلاً ولكنها كانت واثقة من أنه العمل الصائب. كانت في أعماقها تعلم أنها تحب ريتشارد، وأنها لا تريد سوى أن تؤسس معه ومع الطفل القادم أسرة حقيقية، وإذا بصورة أماندا تتمثل لها لتعذبها. لا يمكن أبداً أن يستمر الحال بهما على هذا الشكل. فإذا كان ريتشارد متعلقاً حقاً بأماندا، فعليه أن يقسم على أن يتخلى عنها ويبقى لإيما وحدها. والإ فان على مهزلة هذا الزواج السخيفة أن تنتهي على الفور. وشعرت لمجرد التفكير في الطلاق بمثل طعنة السكين في فؤادها، ولكنها تعلم أن هذا سيكون أفضل من الكذب والخداع.. هذا الخداع الذي يبدو أنه خنق زواجهما منذ البداية. فإذا لم يكن بإمكان ريتشارد أن

يحبها، ويحبها وحدها، فمن الأفضل لها أن تتركه وتؤسس لنفسها حياة جديدة مع طفلها.

وبينما تابعت القيادة إلى المنزل، ابتدأ التفاؤل يعود إليها ببطء. كانت تشعر بالخوف كسفينة تتقاذفها الأمواج الهائجة، ولكنها الآن أخذت تستعيد توازنها. وعاد ذلك السكون الغريب يشمل كيانها مرة أخرى.

عندما أوقفت سيارتها في الباحة المرصوفة بالقرميد خلف المنزل، وخطت إلى الداخل، غمرها فيض من الثقة والحنان بأن كل شيء سيصلح بينهما. إنها واثقة من هذا. ودهشت إذ رأت سيارة ريتشارد واقفة قرب البيت الزجاجي وأدركت أنه لا بد عاد إلى البيت باكراً، ربما فعل ذلك لنفس السبب الذي هي هنا لأجله... لكي يشق طريقاً خلال أشواك المشكلات التي نبتت بينهما، لكي يبقى دون أن يتركها بعد ذلك أبداً. دخلت المنزل على أطراف أصابعها، راجية أن تتمكن من مفاجأته، ثم لاحظت أن باب غرفة الجلوس كان مفتوحاً. وبابتسامة ماكرة، تسللت إلى الداخل تختلس النظر وهي تهتف: «ريتشارد؟»

وفجأة تجمدت الابتسامة على وجهها. ذلك أن أماندا موريس كانت تجلس على الأريكة البيضاء المذهبة، بينما كان ريتشارد يجلس أمامها. وما أن رأى إيما حتى قفز واقفاً على قدميه وقد بدا على وجهه الذعر بشكل يدعو إلى الضحك. ولكن مظهر الحذر والخوف الموقت هذا سرعان ما تبدل إلى غطرسة وتحد. وتقدمت إيما خطوة إلى الأمام وقد أصابتها صدمة صاعقة وهي تسأل بحدة: «ما الذي يجري هنا؟»

أجاب ريتشارد: «لا شيء، لا شيء يستدعي قلقك يا إيما.»

صرخت أماندا وهي تقفز واقفة ثم تمسكه بكتفيه: «لا تقل هذا. لا تقل إنني لا شيء. إنني أحبك يا ريتشارد.»

تراجعت إيما خطوة إلى الخلف وهي تهز رأسها وكأن بها دواراً وهي تقول بصوت متأرجح على حافة الهستيريا: «لا يمكنك أن تفعل هذا بي، يا ريتشارد. لا يمكنك أن تتباهى بصديقتك أمامي في بيتي. لا يمكنني احتمال هذا. دعها ترحل.»

أخذ ريتشارد ينقل نظراته بين المرأتين وقد بان على وجهه تعبير غامض. ثم ضغط لحظة كتف المحامية الشابة مطمئناً وهو يأمرها باقتضاب: «الأفضل أن تذهبي الآن، يا أماندا. سنتحدث عن هذا فيما بعد.»

فقالت أماندا محتجة: «إنها هي التي عليك أن تطلب منها الذهاب، وليس أنا. إنك تعرف انك تحبني أكثر منها، يا ريتشارد. إنك تحبني... تحبني.»

«أماندا.» اخترق صوت ريتشارد جو الغرفة كالرعد. «اضبطي نفسك. سأتحدث معك عن خططي عندما تهدإين وفي نفس الوقت تذكري أنني اعتمد عليك في الذهاب إلى غوسفورد ومعالجة أمر ذلك العقار. إياك أن تخذليني.»

اجتازت أماندا الغرفة ووقفت عند الباب وكتفاها ترتفعان وتنخفضان، وهي تقول بصوت مرتجف: «إنني لن أخذلك أبداً، يا ريتشارد.» ثم تغضن وجهها وفرت هاربة من الغرفة.

تنهد ريتشارد حانقاً وهو يمر بأصابعه في شعره الجعد ثم تقدم خطوة نحو زوجته وابتدأ يقول: «إيما، بامكاني أن أشرح...»

انفجرت تقول: «لقد سئمت من شروحك المهلهلة. انك تستغل تلك الفتاة المنكودة الحظ بنفس القسوة التي استغليتني بها. ولكن هذا لن يكون بعد الآن أبداً. ولا يهمني ما الذي سيكلفني هذا، يمكنك أن تدفعني إلى الإفلاس عشر مرات، ولكن كل شيء انتهى بيننا. انتهى، هل تسمعني؟ والآن خذ خاتمك وأخرج من حياتي.»

وبحركة يائسة ملتاعة، نزعت خاتم الزواج الذهبي من اصبعها وألقت به إليه. ثم بعد أن أطلقت صرخة باكية خافتة، هربت من الغرفة، كان قلبها يخفق وهي تسمع صدى خطوات ريتشارد تلحق بها وذلك في الوقت الذي وصلت فيه إلى أعلم السلم. وشهقت تلتمس هواء تتنفسه وهي تركض على مدى الممر ثم تندفع إلى غرفة النوم وتصفق الباب خلفها مقفلة إياه بالمفتاح بأصابع مرتجفة. ودون اهتمام بحالتها، أخذت تجر المنضدة الثقيلة من جانب السرير إلى خلف الباب. وبعد ذلك بلحظات، ابتدأت طرقاته القوية كالرعد.

«دعيني أدخل، يا إيما، أو أقسم أن أحطم هذا الباب.»

«حطمه إذن، فهذا فقط ما يبعث السرور إلى نفسك، أليس كذلك؟ جبان، كذاب.»

«إيما، اسمعيني، تباً لك. إن هناك تفسيراً بسيطاً تماماً لهذا...»

«بالتأكيد، هذا إذا كنت أنا من البساطة بحيث أصدقه.

www.elromancia.com

ولكنني لم أعد كذلك. لن أصدق أبداً كلمة تنطق بها أيها الكذاب، المخادع، عديم القلب، الوغد...»

وفجأة صعدت في حلق إيما شهقة متشنجة أوشكت بها على الاختناق، فانهارت على الفراش صارخة معولة كطفل مصاب وهي تتأرجح أماماً وخلفاً وتشهق محاولة أن تتنفس.

«ما الأمر يا إيما. هل تبكين؟ دعيني أدخل. حبيبتي، إن كل هذا مجرد غلطة سخيفة. لا شيء هناك يجعلك تبكين لأجله. أقسم لك.»

حتى في هذه الحالة، ما زال لذلك الصوت الأجش من التأثير بحيث يقهرها. وكادت للحظة واحدة، أن تقف وتفتح الباب ولكنها تذكرت ما حاط بها من ظلم، أجج النار في نفسها، وبحركة عنيفة أمسكت بإناء من البلور موضوع على المنضدة بجانب السرير ثم ألقت به إلى الأرض.

«إيما، ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟»

كان صوته مليئاً بالفزع. فيا للمنافق الخائن. وقالت: «نعم، أنا بخير، ولا أشكرك.»

«دعيني أدخل. سأسوي هذا الأمر في دقيقتين.»

وعندما لم يعد بامكانها احتمال تملقه الكاذب هذا، خطر لها رأي فاندفعت إلى حيث أمسكت بمسجل على منضدة في إحدى الزوايا، ثم أخذت تفتش بأصابع مرتجفة في الصندوق الذي يحتوي على تسجيلات ريتشارد الموسيقية لتخرج واحداً منها يحوي موسيقى صاخبة... هذا سيقفل فمه.

وهذا ما حدث ولكنه كاد يصمّ أذني إيما. وما أن أرعدت

موسيقى فاغنر الصاخبة في جو الغرفة بأعلى مدى للصوت، وضعت اصبعيها في أذنيها. ولكن رغم هذا الهدير العاصف، ما زال صوت ضربات ريتشارد على الباب وصراخه يصلان إلى مسامعها... ولكن فقط بشكل كلمات متقطعة كانت تخترق الضجيج.

«أماندا... حبيبتي... حمقاء... أنت... الباب... غوسفورد... الآن...»

وبعد وقت طويل، لم تعد تسمع شيئاً سوى موسيقى فاغنر. فأزاحت أصابعها عن أذنيها، وخفضت من صوت الموسيقى في المسجل بحذر، وعادت تستمع مرة أخرى. لا شيء. فسارت على أطراف أصابعها نحو الباب وانتظرت. ربما كانت هذه حيلة منه. ولكنها ما لبثت أن سمعت صوت محرك سيارة ريتشارد في الخارج. فركضت إلى النافذة تنظر منها في نفس الوقت الذي كانت فيه السيارة تتوارى صاعدة إلى الطريق العام يقودها ريتشارد.

وقالت بصوت غير مسموع، ريتشارد! ورفعت قبضتيها وهي تضغط بوجهها على الزجاج.

عندما استدارت عن النافذة، تملكها شعور هائل بالوحشة والفراغ. لقد طلبت منه أن يذهب، ولكنها، بشكل ما، لم تصدق أنه سيفعل ذلك. وأدركت في أعماقها الآن أنها كانت ترجو حدوث اعجوبة. وأنه سيدلي حقاً بتفسير سديد لا سبيل إلى دحضه وبامكانها أن تصدقه ولكنها بدلاً من ذلك أصابها ما تستحقه بالضبط لكونها بهذه السذاجة. لقد هجرها دون أي تفسير كلياً.

بعد ذلك بساعات وكانت مستلقية على سريرها تحدّق

www.elromancia.com

في الظلام، ووجهها منتفخ وملطخ من البكاء تصاعد رنين الهاتف بجانبها.

«فقفزت ترفع السماعة كالمحمومة انه هو. لا بد أنه هو. وهو سيعتذر إليها، يشرح لها ويصلح كل شيء.

ولكنه لم يكن صوت ريتشارد على الخط. كان صوت أماندا. بارداً، ساخراً، عدائياً بشكل ملحوظ: «إيما؟ أنا أماندا هنا. وقد اتصلت بك لأقول إنني مع ريتشارد هنا في غوسفورد. لا تنتظريه أن يعود إلى البيت قريباً.»

الفصل الثامن

تحركت ايما عفوياً لتسكت ذلك الصوت الكريه الظافر. فوضعت السماعة في مكانها بعنف وكأنها تسحق عقرباً، ثم خطر لها أن أماندا قد تحاول الاتصال مرة أخرى، أو أسوأ من ذلك أن يتصل ريتشارد. فهي لم تعد تستطيع احتمال الاعتذارات الكاذبة التي سيخترعها ريتشارد... ايما، بامكاني أن أشرح... حبيبتي... لا شيء هناك يجعلك تبكين لأجله... تباً له. واختطفت السماعة مرة أخرى ووضعتها جانباً، ثم وقفت وهي تترنح بضعف وكأنها تعاني من اصابة عنيفة بالانفلونزا، وسارت متعثرة نحو الباب. كانت المنضدة ما تزال في مكانها خلف الباب وكان حطام الاناء البلوري متناثراً على أرض الغرفة. وبغضب، أمسكت بالمصباح الموضوع على المنضدة بجانب الفراش، وقذفت به إلى الأرض بعنف على مدى ذراعها، وجعلها صوت تهشم البورصلين تشعر بالتحسن نوعاً ما، نوعاً ما فقط.

وشتمت بصوت منخفض وهي تهبط السلم إلى الطابق الأسفل، حيث وجدت مكنسة ومجرفة وعادت لتكنس حطام الإناء والمصباح. وعندما خدشت اصبعها شظية من البلور حدقت فيه بعجب وعبوس، منذهلة لعدم احساسها بأي ألم، بدا وكأن قدرتها على الاحساس قد زالت، ولكنها دخلت الحمام حيث غسلت اصبعها ووضعت عليه ضمادة. وبعد

www.elromancia.com

ذلك سارت بحركات آلية، فأخرجت شريط موسيقى فاغنر من المسجل وألقت به في سلة المهملات. ثم حملت المكنسة والمجرفة ونزلت إلى المطبخ. وساورها تفكير بالخروج في هذا الليل والتمشي إلى أن يصيبها الارهاق. ولكن شيئاً منعها من ذلك، يجب أن تهتم بنفسها لأجل الطفل، كما أن صوتاً داخلياً هتف بها ألاّ تدع هذا الأمر يحطمها، وأنها أقوى مما تظن.

وأخيراً، أطاعت هذا الحافز، فأخذت تحضر لنفسها فنجان شاي. حتى ذلك العمل البسيط بدا وكأنه يهدد بعواقب وخيمة بالنسبة لمشاعرها. وما أن وصلت إلى خياشيمها رائحة الشاي، حتى تذكرت ريتشارد وهو يحضر لها صينية الافطار إلى السرير وفتحت هذه الصورة الباب لفيض من الذكريات. ذكريات ريتشارد... شاب في بذلة رمادية في مكتب تسجيل الزواج، والحب والزهو يطلان من عينيه الزرقاوين. رأته في عين الخيال كيف ملأ أنحاء البيت بالزهور. حتى السرير كان معلقاً فوقه الورود. وإذ تذكرت كل ذلك الآن، أغمضت عينيها وهي ترتجف. لا بد أنه كان يحبها ذات يوم. حتى ولو لم يبق لها من ذلك الحب سوى القسوة والمرارة الآن، لقد أحبها عندما كانت عروسه.

وخاطبت نفسها بوحشية، لا تفكري بذلك يا ايما. فليس هذا ما سيكون عليه الأمر إذا أنت بقيت الآن معه. حتى ولو سمح لك بالبقاء. إن بقية حياتك لن تكون فراشاً من ورود. إنها ستكون كما هي الآن. كما كانت هذه الليلة بالضبط... شكوك، آلام... اكتشافات حقيرة تعسة عن ادعاءات مستمرة بأن كل شيء على ما يرام. أمثل هذه الحياة تريدين؟ هل هذا

حقاً ما تريدين؟ ووضعت فنجان الشاي وهي تطلق آهة ممزقة ثم دفنت وجهها بين يديها.

هتفت بصوت عال، كلا. كلا. أريد شيئاً أفضل من هذا. وذلك لأجلي. لأجل طفلي.

لم تعرف كم أمضت من الوقت على هذا الوضع، ولكنها عندما رفعت فنجانها أخيراً إلى شفتيها، وجدت مذاق الشاي بارداً مراً. إنها تسمع ضجيج الليل في المنزل... دقات ساعة الحائط الأثرية في القاعة... حفيف شجرة غير مشذبة على زجاج نافذة غرفة الطعام. دوماً كانت تفكر في تشذيب تلك الشجرة. حسناً، لقد أصبح على ريتشارد القيام بهذا العمل الآن. ذلك أنها لن تبقى في هذا البيت يوماً آخر. حتى في هذا الحين، هي الحمقاء، تشعر بوخزة ألم تشملها. منذ عاد ريتشارد إلى حياتها جعلها نوع من التفاؤل الأحمق تتعلق بالأمل في أن كل شيء سيصلح بينهما، وأنهما سيحلان مشكلاتهما وسيقعان في الحب من جديد، ويمكثان في هذا البيت القديم الرائع الجمال وينشئان أسرة معاً. فما أشد سذاجتها. حسناً، لقد حان الوقت لتبدأ في التخطيط لحياتها وحدها. إن الشهور الثلاثة المفروض أن تجمعهما لم تنته بعد، ولكن ليس ثمة طريقة تجعلها تبقى بقية المدة، ولا يهم ما سيصنعه بشركتها بريرو، لم يبق أمامها سوى شيء واحد يحفظ لها كرامتها الآن، وهو أن تحزم أمتعتها، وتخرج من المنزل ثم ترفع دعوى طلاق. ليس أمامها طريق آخر.

أمضت ايما بقية الليل ومعظم الصباح التالي، مندفعة بعنف تجمع أشياءها. ودهشت لما كان تكدس لديها في

الأسابيع القليلة التي عاشت فيها هنا، ولكن العمل انتهى أخيراً. وكانت تقفل آخر حقيبة عندما سمعت صوت عجلات سيارة خارج المنزل، ورغم ما كانت صممت عليه نهائياً، فقد شعرت بقلبها يقفز من مكانه. إن عليها عاجلاً أم آجلاً، أن تواجه ريتشارد وربما من الأفضل أن تنتهي من هذه المحنة على الفور. وهكذا ذهبت إلى الباب الخلفي، رافعة الرأس مطبقة الفك بشكل خطر. ولكنه لم يكن ريتشارد ذلك الذي كان يسير في الباحة. كانت أماندا.

كانت بالطقم الأسود الذي كانت ترتديه والقميص الأبيض، وخطواتها السريعة النشيطة، كانت تبدو كجنود الاقتحام النازية. ألقت المرأة الشابة نظرة سريعة متفحصة على ايما، ثم تقدمت نحو الباب بخطوات واثقة وهي تحمل في يدها حقيبة أوراقها.

قالت دون أية تحية أو مقدمات: «أريد أن أتحدث إليك.»

سألتها ايما ببرود: «عن ماذا؟»

«عن الطلاق.»

«أي طلاق؟»

ابتسمت أماندا بازدراء وهي ترفع حاجبيها الأشقرين المخططين بعناية، ثم قالت بلهجة ناعمة: «طلاقكما أنت وريتشارد، بالطبع.»

فحبست ايما أنفاسها وتراجعت خطوة إلى الخلف. ثم سألتها متحدية: «وما الذي جعلك تظنين بأننا سنطلق؟»

أطلقت أماندا تنهيدة خافتة، ثم سألتها: «أتمانعين في أن أدخل إلى المنزل؟ من الأفضل أن أشرح الأمر بهدوء. أريد أن نتحدث في مكان منفرد.»

أشارت إليها ايما بدخول المنزل، وهي تشعر بأنها تنهزم أمام هجوم عدو، ثم قادتها إلى غرفة الجلوس.

فتحت أماندا حقيبة أوراقها، وألقت بملفين من الأوراق على المنضدة، ثم رفعت غطاء قلم ذهبي وهي تنظر إلى ايما قائلة: «طلب مني ريتشارد التحدث إليك في موضوع الطلاق. إنه مستعد لأن يكون سخياً معك تماماً في حالة عدم معارضتك.»

سألتها ايما وهي تتساءل لماذا لا يملك ريتشارد من اللياقة ما يجعله يتصرف بهذا الأمر بنفسه، سألتها: «ماذا تعنين؟»

هزت أماندا كتفيها: «حسناً، من الواضح أن تجربة التسوية هذه بينكما، لم تنجح، ولهذا يريد ريتشارد أن ينهيها، فإذا أنت وافقت على الرحيل بهدوء، فهو سيمنحك تعويضاً سخياً.»

امتلأت ايما غضباً وهي تسألها: «وما هو دورك أنت في ذلك؟ هل أنت المحامية وكيلته؟»

كتمت أماندا ابتسامة وهي تجيب: «كلا. إن محامياً آخر سيتولى أمر قضية الطلاق في المحكمة، إذ ليس من المفروض عرفياً، أن أقوم أنا بهذا حيث أنني الطرف المستفيد.»

انفجرت ايما غاضبة: «الطرف المستفيد؟ بأي شكل؟»

«أليس الأمر واضحاً؟ إنني وريتشارد حبيبان منذ أكثر من عام. ولكن زواجه منك كان يشغل باله على الدوام، فقال لي انه يريد أن يجرب اجراء تسوية معك لكي يتأكد مما إذا كانت الأمور قد انتهت حقاً بينكما. فإذا كان الأمر كذلك، وعدني بأن يحصل على الطلاق ثم يتزوجني.»

شعرت ايما لدى سماعها هذا بمثل طعنة خنجر في فؤادها، إن ما كانت تقوله أماندا هو شيء فاضح، ولكنه يتفق تماماً مع كل شيء كان ريتشارد أخبرها به. اليس هذا هو السبب المحتمل وراء تصميمه غير العادي لإعادة ايما لتجربة قصيرة؟

قالت بهدوء وهي تجاهد لتتمالك نفسها: «فهمت، والآن؟»

قالت أماندا متكلفة الابتسام: «الآن أصبح متأكداً. إنه يريد أن يطلقك ويتزوجني. ولكنه ما زال يشعر بمسؤولية مالية نحوك، ولهذا طلب مني أن أحدثك عن حلّ معقول لكل منكما. فإذا أنت سافرت الآن إلى ما وراء البحار دون ضجة، ثم تمكثين بعيداً سنة ونصفاً على الأقل، فسيقدم إليك ريتشارد تعويضاً بالغ السخاء. لا يمكنني أن أقدم أي تعهد، ولكنني أتصور أنه سيكون حوالي العشرين مليوناً من الدولارات، توضع باسمك. يمكنك أن تذهبي إلى أيّ مكان تشائين... اوروبا... اميركا... فالرأي رأيك. إنما يجب أن تبتعدي مدة طويلة.»

سألتها إيما: «وإذا أنا رفضت؟»

هزت أماندا كتفيها وهي تضع الأوراق في حقيبتها، تاركة تذكرة السفر على المنضدة، ثم أجابت: «إذا أنت رفضت فستكون حالتك المادية أسوأ كثيراً مما هي عليه الآن. ولكن ليس هذا هو الموضوع، أليس كذلك يا إيما؟ الموضوع الحقيقي هو هذا... إذا أنت ذهبت الآن، فستكونين قد ذهبت محفوظة الكرامة. إن ريتشارد سيخبر، ببساطة، كل انسان بأن تجربة الصلح لم تنجح

وأنك تركته مرة أخرى. ولكن إذا أنت بقيت هنا، فستتألمين من مذلة هجر ريتشارد لك ليعيش معي. ماذا سيكون شعورك حينذاك؟ من الحكمة أن تفكري في كل هذا وتستسلمي بكل رقة، يا إيما.»

سرت في كيان إيما شعلة من الكراهية وهي تحدّق إلى هذه المرأة الوقحة التي تخبرها بكل قسوة بأن زواجها قد انتهى. وساورتها الرغبة لحظة، في أن تصفع وجه أماندا بابتسامته الساخرة هذه ولكنها تمالكت نفسها وهي تقول بصوت كالفحيح: «أخرجي من بيتي.»

وقفت أماندا بحركة رشيقة غير متسرعة، ثم قالت بلهجة ناعمة: «لا بأس، ولكنني اقترح عليك أيضاً أن تتركي المنزل أيضاً. الآن، اليوم، قبل أن أعود أنا وريتشارد إلى هنا فتبدأ ثرثرة محرري الصحف الذين سيعلمون بما حدث. فكري في هذا، يا إيما.»

لم تستطع إيما أن تفكر في شيء آخر. فكرت في الاتصال بأمها أو جيني أو الآنسة ماتي لتلقي أمامهن بكل متاعبها، ولكنها خافت من المذلة التي ستشعر بها إذ تكشف لهن عن أن بامكان ريتشارد أن يكون سافلاً قاسياً بهذا الشكل. وفي هذه الأثناء كانت تذكرة السفر ملقاة على المنضدة مخيفة كالعنكبوت تجذب نظراتها كلما مرت بها، ماذا عليها أن تفعل؟ إنها تكره فكرة الخضوع لمطالب أماندا. بدا لها من الجبن أن تستسلم دون كفاح، ولكن ألم تخسر المعركة وانتهى الأمر؟ لقد أوضح لها ريتشارد منذ البداية أن عودتهما إلى بعضهما لن تكون تجربة حقيقية للصلح، وأنه لا يرجو أن ينتعش زواجهما على المدى البعيد. كل ذلك لم

يكن سوى إظهار قاس للقوة من جانبه فماذا سيجديها إذن البقاء هنا سوى مزيد من الإذلال، حتى ولو عادت إلى منزلها في القسم الآخر من سيدني، فستبقى واثقة من أن أماندا ستنفذ تهديدها في تشهيرها في الصحف عن سبب فشل زواجها من ريتشارد للمرة الثانية. شعرت بأنها لا تستطيع احتمال ذلك. وظهرت أمامها صورة مدينة بالي وكأنها تخلصها من كل متاعبها أثناء الأسابيع الماضية... وفي النهاية استقلت سيارتها لتطوف بها أنحاء سيدني عدة ساعات، محاولة دون جدوى، ان تسوي من مشاعرها وأفكارها المتشابكة.

عندما عادت إلى البيت، دهشت لرؤية سيارة ليموزين رمادية واقفة أمام البيت، وقد استند إليها فتى في حوالي التاسعة عشرة من عمره وقد بان عليه الضجر. وعندما اقتربت، وقف يعدل من ربطة عنقه، ثم اتجه نحوها.

قال وهو يرفع يده محيياً: «مساء الخير، يا سيدة فيلدينغ. لقد أرسلني السيد فيلدينغ لأذكرك بأنك ستحضرين حفلة العشاء التي تقيمها جمعية مساعدة الأطفال المعاقين في داسفورد هاوس هذه الليلة، وقد حضرت لآخذك إلى هناك.»

قالت بفتور: «إنني لست قادمة.»

بدا الذعر على وجه الفتى على الفور، وقال متضرعاً: «آه، أرجوك يا سيدة فيلدينغ. يجب عليك أن تأتي. لقد قال السيد فيلدينغ أنه سيطردني من عملي إذا أنا لم أحضرك معي.»

سألته بحدة: «ماذا؟ ما أسخف ذلك.»

هتف قائلاً: «هذا صحيح. ولكنه يعني ذلك أيضاً. وهذه أول وظيفة أحصل عليها منذ تركت المدرسة بعد أن بقيت عاطلاً عن العمل اكثر من سنتين. أرجوك يا سيدة فيلدينغ تعالي فقط لفترة قصيرة.»

يا لها من مكيدة عفنة... وأمسكت لسانها عن النطق بهذه الكلمات، ولكنها كانت تحرق حلقها كالأسيد. إنها مناورة من ريتشارد ليجعلها تقوم بما يريده منها. حسناً، إنها لن تنجح. فهي لن تسمح بخداعها بهذا الشكل. ولكنها عندما نظرت إلى عيني الفتى الضارعتين وهو يقول: «إنك ستأتين، أليس كذلك؟»

وجدت نفسها تجيب: «لا بأس. سأحضر. انتظرني فقط لأبدل ملابسي.»

بعد ذلك بربع ساعة، خرجت إيما من البيت وقد رفعت شعرها عالياً، بينما عيناها تلتمعان بالغضب. صعدت إلى السيارة التي في انتظارها وقد صممت على ألاّ تبدي أي مظهر ضعف أمامه. لقد ارتدت بكل عناية ثوباً قرمزياً مذهلاً، ورفعت شعرها الأسود عالياً، وكانت زينة وجهها متقنة، كما وضعت حول عنقها عقداً من الذهب والياقوت وكذلك قرطين واسورة تتلاءم معها. وعندما فتح السائق الشاب باب السيارة لها، ألقى عليها نظرة اعجاب واضحة. حاولت أن تهدىء من ضربات قلبها المتلاحقة وهي تتكىء إلى الخلف بين الوسائد. لم تستطع أن تفهم سبباً وجيهاً لدعوة ريتشارد لها إلى هذه الحفلة إلا إذا كان يراها وسيلة أخرى لإذلالها. حسناً، إذا كان الأمر كذلك، فستجعله يغير رأيه. فقد سئمت إيما طريقة التهدئة هذه. فإذا كانت مواجهة

حاسمة فأهلاً بهذه الفرصة التي ستخبر ريتشارد فيها بعض الحقائق عن نفسه. لن تعود بعد الآن تلك الزوجة الصغيرة الطيبة المتواضعة التي تعيش في ظل زوجها، كلا. فإذا تجرأ ريتشارد على التفوه بكلمة أمامها هذه الليلة فهي ستظهر له كامل احتقارها، ثم تترك البيت.

كانت الساعة حوالي الثامنة عندما توجهت السيارة نحو منزل قديم الطراز رائع الجمال قائم في حديقة فسيحة كثيفة الأشجار. ومع أن البدر كان ينير الانحاء، إلا أن الطريق كان مناراً بمصابيح صفراء تلقي بأضوائها الذهبية على واجهة البيت.

ما أن توقفت السيارة خارج الباب الأمامي حتى مالت إيما إلى الأمام وقالت تخاطب السائق: «أريدك أن تنتظرني في الشارع الجانبي قريباً من المنزل. ربما لن أمكث طويلاً.»

«نعم يا سيدتي.»

ساعدها على الخروج من السيارة حارس يرتدي بذلة سوداء وعلى رأسه قبعة سوداء يزينها شريط ذهبي، ثم رافقها إلى الردهة الأمامية للمنزل. وهناك ناولت معطفها للموظفة المختصة في غرفة المعاطف، ثم نظرت حولها. ومع أن تذكرة الدخول كانت تكلف بضع مئات من الدولارات للشخص الواحد، فقد كان المنزل مزدحماً بأفراد الهيئة الاجتماعية في سيدني. كان الرجال في بذلات العشاء السوداء والنساء في أثواب براقة الألوان، وكان الحديث بين الجميع يدور بحيوية ونشاط فيصل إلى المسامع كطنين النحل. كان الحضور من الكثرة بحيث ظنت أنها قد لا ترى

ريتشارد. ولكنها ما لبثت أن انتابها احساس بوخزة بين كتفيها، فاستدارت بحدة لتراه واقفاً ينظر إليها. حتى في لحظة كهذه، شعرت بقلبها يثب بين أضلعها لرؤيته. وعندما تقدم نحوها شاقاً طريقه بين الجموع، كان أطول من أكثر المدعوين بأكثر من خمس أو ست إنشات وبشعره الأشقر الجعد الثائر، ذكرها بالأمواج المتكسرة على الشاطىء.

«ايما.»

«ريتشارد.»

بدا الجو بينهما مشحوناً بالعداء. قبض على أعلى ذراعها بيده القوية، فصدرت عنها شهقة احتجاج، فتجاهل هذا بشكل ساخر ثم قادها نحو باب جانبي.

سألته متذمرة: «إلى أين أنت ذاهب؟ لقد وصلت لتوي. إن لدي...»

فقاطعها يقول: «إلى الحديقة. أريد أن أتكلم معك.»

استدار حول زاوية، حيث أفسحت رائحة العطور الغالية المجال للروائح الشهية الدافئة الصادرة من المطبخ. ثم فتح الباب الخارجي لتجد نفسها في شرفة من القرميد اجتازاها هابطين إلى الحديقة حيث أجلسها على مقعد متوارٍ بين الأشجار.

سألها بصوت متوتر بما يكتم من عنف: «ما الذي جعلك تقفلين الباب الليلة الماضية؟»

فشهقت غاضبة وهمست بصوت أبح: «آه، ألا تظن أن لديّ أسباباً كافية لذلك؟»

«كلا، لا أظن ذلك إنك...»

وفي هذه اللحظة، دوى جرس العشاء داخل المنزل.

www.elromancia.com

فاغتنمت هذه الفرصة مسرورة لتنزع يدها من قبضته، ثم أمسكت بتنورتها بيديها، وانطلقت عائدة تصعد السلم وهي تقول له من فوق كتفها: «إنني داخلة إلى المنزل للعشاء.»

وفي الداخل، التقاها ريتشارد حيث انابها السخط إذ لم تستطع تجنب الجلوس بجانبه على المائدة. كان الطعام ممتازاً. ابتدأ بأنواع الأسماك المختلفة يليه البطاطا والكوسى وفطائر الفراولة ومختلف أنواع الجبن اللذيذة ولكن كل هذا كان له في فم ايما مذاق الرماد. أبعدت عنها طبق القريدس، وأخذت قليلاً من الهليون مع صلصة هولندية، كما أبعدت البفتيك والخضر في طبقها، ورفضت كل ما قدم لها من حلوى أو قهوة.

سألها ريتشارد باقتضاب: «أما زلت مريضة؟»

«كلا.»

«إذن فكفّي عن التصرف كالأطفال وتناولي طعامك.»

ألقت عليه نظرة عاصفة ولم تقل شيئاً. وعند الطرف البعيد للناحية المقابلة من المائدة رأت أماندا موريس جالسة تراقبها، وقد بدت كإعلان عن أواني الطبخ من معدن الألمنيوم بثوبها الطويل الفضي وفي أذنيها قرطان بنفس اللون. وعلى الفور، تقابلت أعين المرأتين، وشعرت ايما بيأس خانق. فكرت بذعر في أنها فازت عليها. لقد فازت. لماذا سمح ريتشارد لها بأن تنتصر عليها؟ ولحسن الحظ كان العشاء قد انتهى وأصبح باستطاعة ايما أن تترك المائدة.

كانت قاعة الرقص تمتد على طول البناية وكانت معتبرة تحفة فنية من أعمال مهندسي العصر الجورجي. ولكن لم

تكن لدى ايما عينان لتريا كل هذا الجمال والفن. وفي اللحظة التي دخلا فيها القاعة، ابتدأت الموسيقى بالعزف، وقبضت يد ريتشارد على يدها بعنف آلمها.

قال لها بلهجة أقرب إلى الأمر منها إلى الطلب: «أتريدين أن ترقصي يا إيما؟»

أجابت ببرود: «كلا، شكراً. لمَ لا ترقص مع أماندا؟»

توترت شفتا ريتشارد، وبدت في عينيه نظرة ملتهبة، وهو يرد بقوله: «ربما سأفعل ذلك.» ثم أدار ظهره إليها مجتازاً الغرفة إلى حيث كانت أماندا جالسة في الجهة المقابلة. وبعد ذلك بلحظة كانا يدوران برشاقة على أنغام الموسيقى.

لم تنتظر ايما لترى أكثر من ذلك. لقد بدا واضحاً أن ريتشارد قد قام بالاختيار ولم يبق فائدة من البقاء لتلقى المزيد من الاذلال. فشقت طريقها خلال الزحام إلى أن وصلت إلى الردهة الأمامية، فأسرعت إلى غرفة المعاطف تستعيد معطفها. لتتابع طريقها وهي تكاد تركض، خارجة، ثم سألت أحد الحراس: «لديّ سائق ينتظرني في سيارة ليموزين رمادية في الشارع الجانبي حول المنعطف. هل لك أن تبحث عنه وتطلب منه القدوم، لأنني أريد أن أذهب الآن إلى بيتي، من فضلك.»

كانت رحلة العودة بمثابة كابوس. كل ما كان في ذهنها صورة لا تمحى لأماندا مع ريتشارد في حلبة الرقص يتمايلان على أنغام الموسيقى. لقد جفت دموع ايما الآن. ولكن ألماً غامضاً كان يشمل جسدها بأجمعه. وعندما وقفت السيارة بها أخيراً قريباً من البيت، وجدت نفسها ما

www.elromancia.com

تزال تفكر وتخطط كحيوان طريد. فسحبت من حقيبة يدها ورقة مالية بخمسين دولاراً وضعتها في يد السائق الشاب قائلة: «أريدك أن توقف السيارة في الظلال خلف بيت النباتات الزجاجي هناك، إنني داخلة فقط لأحزم بعض الأشياء. وسأكون هنا بعد عشر دقائق أو نحوها. اجعل السيارة في وضع ملائم للانطلاق بها على الفور.»

بدا الارتباك على السائق الشاب، ولكنه أومأ مطيعاً. وما أن دخلت المنزل، حتى ساورها ظن يقرب من اليقين، وأثار في نفسها الخوف والاضطراب، في أن ريتشارد سيأتي الآن في أثرها. وحاولت أن تحدث نفسها بأن خوفها هذا مجرد سخافة. وبعد، فمن المستبعد أن يجر ريتشارد نفسه مبتعداً عن أماندا، لا لشيء إلا ليقتفي أثر زوجته، ولكنه إذا جاء فهي لا تريد أن تراه. إنها تريد أن تبتعد من هنا قبل وصوله، ولسوء الحظ، كان تنبؤها هذا صائباً تماماً.

كانت قد سبق وحزمت أكثر متاعها، انما كانت قد فرغت لتوها من تغيير ملابسها حيث ارتدت طقماً صوفياً وأخذت تدس مزيداً من الملابس في حقيبة، عندما سمعت صوت هدير سيارة ريتشارد المعتاد، قفزت واقفة ثم أغلقت الحقيبة بعنف، واختطفت معطفها وتهيأت للرحيل، ولكن الوقت كان قد فات. كان ريتشارد واقفاً في عتبة غرفة النوم وهو يلهث وكأنه كان يصعد السلم ركضاً. كانت عيناه ضيقتين غضباً وقد بدا وكأن جسده بأجمعه ينضح بالخصام.

قال ببطء وهو يتقدم نحوها بخطوات هر وحشي: «ما الذي تظنين نفسك فاعلة؟»

أجابت بايجاز: «راحلة.»

«آه، كلا، إنك لن ترحلي. إنك ستبقين هنا حيث هو مكانك.»

شعرت بالحقيبة في يدها تزداد ثقلاً، فألقت بها إلى الأرض بغضب وهي تهب في وجهه قائلة: «أتظن أن بامكانك أن تحرك اصبعك فآتي إليك ركضاً كالجرو؟ حسناً، ليس عليّ أن أستجيب لهذا النوع من الهراء، إني راحلة.» ومدت يدها إلى حقيبة ثيابها. ولكن ريتشارد كان أسرع منها اليها حيث أمسك بها بعيداً عن متناولها.

وسألها بصوت منخفض ينذر بالشر: «هل لك أن تخبريني لماذا؟»

فأطلقت ضحكة خالية من البهجة وهي ترد عليه بقولها: «كنت أظن أن بامكان رجل متفوق الذكاء مثل زوجي لا بد أن يدرك السبب. وبعد، أليس هذا بالضبط ما تريده مني؟ أليس هذا ما أرسلت لأجله فتاتك إليّ هذا الصباح محضرة لي تذكرة الطائرة؟»

بدا الذهول على ريتشارد وسألها: «ما الذي تتحدثين عنه؟»

ففتحت ايما حقيبة يدها التي كانت معلقة في كتفها وأبرزت له تذكرة السفر الحمراء اللون.

«ها هي ذي! وقد أحضرتها غاليتك أماندا إليّ هذا الصباح.»

فقال بحدة: «إنها ليست غاليتي أماندا.»

«آه، جرب طريقة أخرى لخداعي، يا ريتشارد.»

«اسمعي يا ايما. أماندا ليست فتاتي. وأنا لا أعرف شيئاً

عن تذكرة السفر هذه، وكل الذي أعرفه هو أنك كنت تتصرفين منذ الأمس كطفلة أفسدها الدلال.»

صرخت ايما: «طفلة أفسدها الدلال. إذن، فأنا طفلة مفسودة لأنني لا أريد أن يحضر زوجي صديقته إلى بيتي.»

فقال: «إنها ليست صديقتي.»

جاهدت ايما في سبيل السيطرة على أنفاسها المتقطعة لتقول: «آه، أليست هي كذلك؟ لماذا إذن أخبرتني انك كنت تفكر بالزواج منها؟»

أجابها: «لكي أجعلك تغارين. أنا وأماندا لسنا سوى زميلي مهنة حتى الآن، ولا شيء غير هذا قط. أقسم لك بذلك.»

ألقت عليه نظرة باردة متشككة: «إذن، فلماذا كانت في غرفة جلوسي أمس تخبرك بأنها تحبك؟»

بان على وجه ريتشارد الارتباك وهو يتخلل شعره بأصابعه، ثم قال بصوت هادىء: «حيث أن أماندا، على ما يبدو، كانت تسيّر أعمالي على مدى السنتين الماضيتين، لم يكن لديّ فكرة عما تفكر فيه نحوي إلى أن جاءت لتراني أمس، وإذا بها تتدفق بكل ذلك الكلام الفارغ عن كونها تحبني. ولكنني لم أقم قط بما يشجعها على ذلك. صدقيني.»

لقد كان صوته يحمل من الاخلاص ما جعل ايما ترتجف وقد ظهر العذاب على ملامحها. ثم نظرت إلى معصمها فرأت أنها ما زالت تضع تلك الاسورة الذهبية المرصعة بالياقوت والتي سبق وسببت كل تلك المشكلات بينهما في الماضي. وإذا بذلك الحادث الصغير في منطقة الجبال

والذي سبب لها العذاب المبرّح، إذا به يندفع عائداً إلى مخيلتها بكامل حيويته، فقالت ببرود: «أنا لا أصدقك. إن هذا الأمر أشبه بما حدث في أول سنة من زواجنا. فأنت داهية حاذق يا ريتشارد إلى حد لا أعرف أبداً متى تكون كاذباً. وما كنت لأعلم قط انك كنت أخذت تلك المرأة إلى منطقة الجبال لو لم تفقدا إسورتي هناك.»

ردد ريتشارد كلامها بحيرة: «الجبال؟ الاسورة؟ ما الذي تتحدثين عنه يا ايما؟»

فصرخت فيه: «هذه.» وبحركة غاضبة، فكت اسورتها من معصمها ثم رمته بها. فتلقاها بيده، ثم وضعها على راحته يتفحصها وقد بدت الحيرة على وجهه.

«إنها الاسورة التي كنت أريتينيها أمس، هل ثمة شيء معين بشأنها؟»

كان قلب ايما الآن يخفق بعنف.

«حتى انك لا تتذكر. أيها النذل، لا بأس. إنني سأنعش ذاكرتك. بعد أن نشأ بيننا ذلك الخصام عما إذا كان أبي قد تعمد جرّك في طريق الافلاس، خرجت أنت من البيت غاضباً حيث غبت خمسة أيام. أليس كذلك؟»

أجاب بجفاء: «هذا صحيح.»

فتابعت بسرعة: «هذا حسن، وأثناء غيابك، ذهبت مع امرأة أخرى إلى منطقة الجبال الزرق لقضاء عطلة نهاية الاسبوع.»

سألها ريتشارد بصوت ثائر: «من أين أتيت بهذا الكلام الفارغ؟»

«إنه ليس كلاماً فارغاً بل هو صحيح. والأسوأ من ذلك

أنك أعطيتها اسورتي هذه. هذه الاسورة التي كانت هدية أبي لي في ذكرى مولدي الثامن عشر، ولم أكن ألبسها إلا نادراً لأنها كانت مزخرفة أكثر من العادة. ولكنها مع هذا، لها قيمة عاطفية. كنت أنت الوحيد الذي كان يعلم هذا، ومع ذلك منحتها إلى امرأة أخرى.»

قال ريتشارد بصبر: «ايما، إنك تفقدين عقلك. إن هذا لم يحدث قط.»

فضربت الأرض بقدمها قائلة: «بل حدث، فما الذي لم تضعه في حسابك هو أن عزيزتك تلك ستضيّع الاسورة في الفندق الذي نزلتما فيه، واسمه نورفولك باينز. لقد اتصل بي المدير هاتفياً وأخبرني أن الخادمة وجدتها أثناء تنظيفها الحجرة. لقد ذهلت ولم أفهم شيئاً. أخبرته بأنه لا يمكن أن أكون أنا لأنني لم أكن عندهم. فقرأ عليّ التفاصيل من دفتر التسجيل. السيد والسيدة ريتشارد فيلدينغ. شارع كروس رقم ٩٦٨ وولو مولو، وقد مكثا هناك الليلة الفائتة. عنواني، اسمي! انك أخذت امرأة أخرى إلى هناك مدعياً أنها زوجتك ثم أعطيتها اسورتي ظاناً بأنني لن أفتقدها.»

«هذا غير صحيح أبداً. إنني لم أذهب إلى منطقة الجبال الزرق طوال حياتي.»

«ريتشارد، لقد ذهبت بنفسي إلى هناك وتعرفت إلى اسورتي. كان لديّ صور التأمين تثبت أنها ملكي. فإذا كنت ستكذب عليّ، فالأفضل أن تغيّر رأيك بعد هذا البرهان.»

تراجع خطوتين إلى الخلف وهو يتابع النظر إلى الاسورة وقد ساد الذهول ملامحه: «إنني لا أفهم. لقد أمضيت كل الأيام الخمسة بعد أن خرجت من بيتنا بقرب

الهاتف في شقة أختي كريستينا محاولاً الحصول على قرض لئلا أفلس. ولم يكن لديّ وقت حتى للتنفس.»

فقالت بصوت ينضح تهكماً: «أظنك ستقول أيضاً أنه لم يكن لديك وقت لقراءة رسالتي، أليس كذلك، يا عزيزي؟»

«رسالة؟»

«لا تقل هذا يا ريتشارد. لا تكذب أو تغيّر الحقائق مدعياً بأنك لم تتسلمها أبداً. لقد كنت أعطيتها لأبي ليسلّمها لك بيده وقد أقسم على أنه وجدك في مكتبك وأعطاك إياها.»

«هل علم هو بالرسالة؟ وماذا كان فيها؟»

حاولت ايما مرتين أن تتكلم، فلم تستطع، كانت تحفظ ما في الرسالة غيباً، ولكنها، في البداية، لم تستطع ارغام نفسها على النطق بالكلمات بصوت عالٍ. وأخيراً، نطقت بها بصوت فاتر جامد سلب الكلمات كل عاطفة: «عزيزي ريتشارد، لن أفهم أبداً ما الذي جعلك تذهب إلى امرأة أخرى وهذا ما حطّم قلبي. لا بأس، فأنا أحبك. ولا أستطيع احتمال الحياة من دونك. أرجوك، عد إليّ وابدأ معي من جديد. أرجوك، أرجوك، أرجوك. ايما.»

فمرّ ريتشارد بيده على جبينه: «هل كتبت هذا؟ هل كتبت هذا حقاً في الوقت الذي كنت تظنين فيه أنني اخدعك؟»

تنهدت ايما بصوت خشن منخفض: «كان هذا غباء مني. أليس كذلك؟ كان هذا في تلك الأيام التي كنت اعتقد فيها بالحب والنهايات السعيدة، لشدّ ما كنت حمقاء.»

تقدم منها قائلاً: «لا تقولي هذا.»

تراجعت كحيوان وقع في ورطة: «بل سأقولها. كنت حمقاء إذ ظننت أن الحب يغيّر أي شيء. لقد أحببتك يا

www.elromancia.com

ريتشارد. أحببتك إلى حد لم أعد أستطيع احتماله. وعندما اكتشفت انك لم تكن مخلصاً لي، وحتى عند ذاك ما كنت لأقلع عن حبك، ولكن ابتلاع كبريائي والتوسل إليك، لم يرجعك إليّ، أليس كذلك؟»

هز ريتشارد رأسه كمن به دوار، وقال: «لا أستطيع أن أفهم نصف ما تقولين، يا ايما. ولكنني أعرف شيئاً واحداً، وهو أن الوقت لم يفتنا.»

فصرخت ايما: «بل فاتنا. إن ما تقوله لا يهمني. يا ريتشارد. إنني ذاهبة، إنني سأبتعد قدر امكاني وسأبدأ حياة جديدة مع طفلي.»

فشحب وجه ريتشارد. ووقف دون حراك: «هل قلت، طفلك؟»

فقالت بصوت خافت: «نعم، يا ريتشارد، وما دام هو طفلك، أيضاً، فمن المفروض أخيراً أن أوافق على السماح لك بالاقتراب منه، ولكن لا تتوقع مني أن أقوم نحوك بأكثر مما أستطيعه. فإذا أنا وجدت طريقي في الحياة، فلن ترى وجهي طوال ما أنا حية، حسناً، أظن أن هذه كلمة الوداع. أتمنى لك ولأماندا السعادة.»

بوغت لاندفاعها الفجائي وهي تركض نحو السلم دون أن تكلف نفسها عناء حمل حقيبة ملابسها.

وصرخ هادراً: «ايما. ارجعي.»

وفكرت وهي تهبط السلم بسرعة خطرة، أن هذا لن يكون. فلديها جواز السفر، وتذكرة الطائرة ودفتر الشيكات السياحية هنا في حقيبة يدها، فهي لا تريد شيئاً منه، أبداً.

وصلت إلى باب غرفة النباتات الزجاجية وهي تتخبط في

الظلام، ثم أخذت تفتش عن المفتاح بأصابع مرتجفة. وبعد ذلك بلحظات كانت تغلقه خلفها بهدوء، ثم اندفعت بسرعة خلال ممر ظليل عابق الجو بشذا الزهر بين صفين من النباتات، لتغلق أصابعها مرة أخرى باباً آخر. وهذه المرة كانت قد أصبحت في الخارج. فتسللت بين الظلال إلى حيث كانت سيارة الليموزين واقفة بانتظارها، ثم فتحت الباب الخلفي حيث انهارت على المقعد وهي تسحب نفساً طويلاً مرتجفاً، ثم أمرته قائلة: «خذني إلى المطار.»

www.elromancia.com

الفصل التاسع

تمايلت اشجار النخيل برقة مع النسيم الاستوائي الدافىء، ومن بعيد، كان يتناهى إلى مسامع إيما أصوات الضحك والتدافع في مياه إحدى برك السباحة. وغير هذا كان السكون يعم المكان. مالت إلى الأمام تأخذ حبة اناناس من مجموعة الفواكه الاستوائية أمامها، ثم أخذت تأكلها بحركة آلية، كانت حبة الفاكهة حلوة غزيرة العصير، ولكن أكلها كان يكلف جهداً... كل شيء أصبح يكلف جهداً هذه الأيام. التفكير فقط في الجنين الذي تحمله في احشائها هو الذي يرغمها على عملية المضغ والبلع هذه. كانت تعلم أن عليها ان تعود إلى سيدني، عاجلاً أم آجلاً، وتواجه ريتشارد، وتمر خلال فترة الألم أثناء دعوة الطلاق. ولكنها حالياً، كانت راضية بالبقاء هنا في مدينة بالي، شاعرة وكأنها في مكان يحميها من بشاعة العالم الحقيقي. أثناء الثلاثة أيام التي مرت عليها منذ وصولها إلى هنا، لم تكد تخرج من غرفتها إلا للتمشي على الشاطىء في الليالي حيث ضوء القمر يغمر الكون. يوماً ما، عليها ان تبدأ في استجماع حياتها الممزقة، من جديد، ولكن ليس الآن، لم يحن الوقت بعد. ها انها تسمع صوت خطوات مفاجئة على الأرض الحجرية للشرفة خارجاً، فرفعت بصرها لترى احد موظفي الفندق واقفاً وقد التمعت اسنانه بابتسامة مترددة وهو يقرع الباب المفتوح.

قالت إيما تستحثه على الكلام: «نعم؟» فتقدم داخلاً وهو

يقول بلهجة من يحفظ درساً عن ظهر قلب: «ان سيارتك إلى بينيلوكان جاهزة، يا سيدتي. ان السائق هنا.»

قطبت جبينها بحيرة: «لا بد ان هنالك خطأ، فأنا لم اطلب...»

فقال الموظف: «ساحضره إليك يا سيدتي.» واختفى عن الانظار بين الأشجار القصيرة ليبرز، بعد لحظة، شخص آخر. رجل اشقر فارع القامة ملتف العضلات وذو عينين زرقاوين لم تر إيما في حياتها ما يماثلهما حيوية. واجتاحها شعور من عدم التصديق وهي تنظر إليه صاعداً السلم نحوها وفي أثره ذلك الغلام يحمل حقيبتي ملابس.

همست: «ريتشارد.»

ودون ان يحول عينيه عنها، دخل ريتشارد، ثم منح الغلام مالاً وهو يشير إليه بالذهاب. اغلق الباب بعد ذلك، بهدوء، ثم استدار يواجهها. كانت موجة السرور اللاإرادية التي سرت في كيانها، في البداية قد حل مكانها الآن الذعر والحذر. تراجعت إلى نهاية الغرفة، ثم اخذت تحدّق إليه ببرود.

تمتمت تقول: «ابتعد من هنا يا ريتشارد، ليس لديّ ما اقوله لك.»

تقدم نحوها، متجاهلاً قولها هذا، وفي عينيه نظرة تشتعل لهفة. ومضى يحدّق في وجهها بجد بالغ وهو يقول بصوت خشن منخفض: «ولكن لديّ انا شيئاً اقوله لك، وهو هذا. انني احبك يا إيما، ولم أتوقف عن حبك قط. وأريدك ان تعودي زوجة لي. وهذه المرة، الأمر حقيقي.»

رفعت إليه عينين خضراوين متشككتين، فالتقتا بعينيه، وسألته: «هل هذا لأجل الطفل؟»

«كلا. انه ليس لأجل الطفل، انه لأجلك انت. لا احتمل الحياة من دونك.»

التوت قسمات وجهها لدى سماعها هذه الكلمات التي طالما تلهفت لسماعها. ولكن، ما اكثر الأوهام التي تكشفت لها مما جعلها لا تصدق ما يقول.

قالت بصوت متهدج: «هذا جميل، ولكنني لا احتمل العيش معك، وأنا غير مستعدة لتشاركني امانداً فيك.»

قال بإلحاح: «هذا لن يحدث. انني لم أحب امانداً في حياتي. على كل حال، انها في طريقها إلى نيويورك الآن بعد ان قبضت مكافأة عمل سخية. وذلك بعد ان علمت كيف اتصلت بك هاتفياً من غوسفورد ثم زارتك في بيتنا. اخبرتها ان عليها ان ترحل، لا يمكن ان اسمح لها بالاستمرار في اخبارك بمثل تلك الأكاذيب والتسبب في ايلامك إلى هذا الحد.»

حدّقت فيه بارتياب وقالت: «أكاذيب؟ ماذا تعني، يا ريتشارد؟ هل تريد ان تخبرني انك لم تمض امسيتك معها في غوسفورد؟»

اطلق ضحكة قصيرة: «آه، نعم، لقد فعلت ذلك. ولكننا كنا غارقين بين القهوة السادة والمستندات القانونية طوال الوقت، لم يكن هناك عشاء على ضوء الشموع. ولم يكن لديّ فكرة عن انها اتصلت بك هاتفياً عن ذلك. صدقيني، لقد حاولت مرات كثيرة الاتصال بك، ولكن يبدو ان السماعة عندك كانت مرفوعة طوال الليل.»

قالت متلعثمة: «ولكن تذكرة السفر، تعويض الطلاق الذي عرضته هي عليّ...»

عبس وقال باقتضاب: «ان امانداً تسلك دوماً طريق الخداع والدهاء. كانت تحاول فقط تخويفك لكي تبتعدي وتفسحي المجال لها. لقد اعترفت بكل هذا عندما ذهبت إلى بيتها وأرغمتها على ذلك في اليوم التالي لرحيلك عن سيدني، ولكنها كانت تضيع وقتها، يا إيما، فأنا لم اهتم قط بامرأة أخرى منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليك.»

كان في صوته من الاخلاص ما جعل غصة تصعد في حلقها. كان عليها ان ترغم نفسها على تذكر الحادثة التي تسببت في تحطيم زواجهما منذ سنوات.

وابتدأت تقول: «الجبال الزرق...»

فقاطعها قائلاً ببطء: «انني لم اذهب إلى منطقة الجبال الزرق في حياتي. ولكنني قمت ببعض التحريات في الأيام القليلة الماضية فوجدت حقيقة ما كان حدث. كان كله خطة مدبرة من أبيك ليفصل بيننا. وقد نجح في ذلك، تباً له، لو كان لدي ذرة شك في ما عساه يدبر لنا، لأوسعته ضرباً، ولكنني لم اتكهن بذلك قط، وكذلك أنت.»

سألته بحيرة: «تتكهن بماذا؟»

فتركها، وطاف قليلاً في أرجاء الغرفة، ثم عاد إليها يواجهها قائلاً: «والدك لم يحبني قط وقد وضع خطة يظهرني بها عديم الاخلاص لك. كانت خطة من اختراعه بجميع تفاصيلها، يا إيما. انظري إلى هذه.»

وفتح بعنف إحدى الحقيبتين الملقاتين على الأرض،

وبحث في داخلها ثم اخرج مجموعة من المستندات. ففصل عنها نسخة مصورة، ثم ناولها إياها.

قالت بحيرة: «انها بطاقة مرور.»

فقال: «نعم، لقد حصلت عليها من الآنسة ماتي. ان لديها تسجيلاً لكل شؤون شركة بريرو رجوعاً إلى السنة المشار إليها على البطاقة هذه، انظري فقط إلى التاريخ. الواحد والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) منذ اكثر من ثماني سنوات. بطاقة المرور هذه هي باسم أبيك. فهل لك ان تخبريني لماذا يدفع أبوك أجراً لمبيت ليلة واحدة في فندق نورفولك باينز؟ في منطقة الجبال الزرق لأجل السيد والسيدة ريتشارد فليدينغ في الوقت الذي لم نكن، انا أو أنت، فيه في أي من تلك النواحي في ذلك الوقت؟ ان هذا أمر يدعو إلى الشك، أليس كذلك؟ ثم أليس من السهل على أبيك فرانك العجوز الطيب ان يصل إلى تلك الاسورة التي يفترض انني اعطيتها لتلك المرأة؟ أليس من الممكن ان يكون هو قد وضعها في ذلك الفندق ثم تدبر الأمر مع مدير الفندق لكي يتصل بك هاتفياً بشأنها؟»

ساد الشحوب وجه إيما وهي ترى هذه الأحجية تنحل تماماً.

وابتدأت تقول بحرارة: «لا يمكن لأبي...» ثم عادت فسكتت. أتراه لا يفعل مثل ذلك، حقاً؟ هل من الممكن ان يتردد في فصل زوجين عن بعضهما البعض، رجل انتزع طفلته البالغة الثانية من عمرها، من أمها؟ وفجأة، عادت إلى ذهنها كلمات سبق وقالتها الآنسة ماتي: «ان بإمكان السيد بريرو أن يكون غاية في السوء إذا اعترض سبيله أحد. وفي منتهى الحقد.»

وبان الذعر في عينيها وقد زادت شكوكها. فقال ريتشارد عابساً: «بل يمكن له ذلك.»

وشعرت إيما بنفسها تكاد تسقط أرضاً، فأمسكت بمسند الكرسي تستند إليه، ثم جلست وهي تهز رأسها، وفجأة رأت ريتشارد جالساً بجانبها على الأريكة يحدق في وجهها بعطف وهو يقول: «هنالك ما هو أسوأ، ولكن عليك ان تعلمي الحقيقة. لقد اتلف أبوك الرسالة التي كنت عهدت بها إليه ليسلمني إياها، والتي تطلبين مني فيها العودة. لقد طلب من الآنسة ماتي اتلافها في آلة اتلاف الأوراق في المكتب.»

فشهقت إيما، قائلة: «ولكن الآنسة ماتي لا يمكن ان تقوم بمثل هذا الأمر القاسي نحوي.»

«لم تكن تعلم أن هذه قسوة، فقد كان والدك اخبرها بأنك قد غيرت رأيك بالنسبة لارسال تلك الرسالة إليّ بعد ان اكتشفت انني ما زلت غير مخلص لك. فظنت انها كانت تتلفها تنفيذاً لرغبتك.»

كانت المرارة في لهجته واضحة. وحدقت إيما فيه وقد بدأت الحقيقة تتضح في ذهنها ببطء، لتدرك فجأة انه كان بريئاً من كل الاساءات التي كانت تلومه لأجلها طوال تلك السنوات، وأنه لم يكن ثمة سبب لكراهيتها له وعدم ثقتها به... لم يكن ثمة سبب على الاطلاق.

قالت متلعثمة: «أواه، كم انا آسفة يا ريتشارد، أتعني انك لم تعرف امرأة أخرى؟ وانك لم تتجاهل رسالتي تلك إليك؟»

هز رأسه قائلاً: «كلا، كل ما فعلته هو تفجري بالغضب، والقول لك ان أباك رجل وغد عديم الضمير، ثم اندفعت خارجاً من البيت. والشيء الوحيد الذي قمت به عندما كنت

بعيداً عن البيت هو ان احصل على قرض لانقذ اعمالي وافضح الشائعات التي كان أبوك يحاول ان يحطمني بها وذلك قبل كل شيء.»

«اتعتقد حقاً بأنه قد قام بذلك نحوك؟»

«طبعاً، فقد كان بالغ الدناءة، لم استطع الحصول على البراهين من قبل، ولكنني حصلت الآن على المستندات التي تثبت ذلك. لقد تعمد جري في طريق الافلاس، وكل هذا لأنني تجرأت على أن أقع في حبك واتزوجك.»

أغمضت إيما عينيها لحظة، وارتجفت. ثم قالت بصوت خافت: «وأنا... آه، يا ريتشارد. هل من الممكن ان تصفح عني لذلك؟»

لمعت عيناه وقال: «لا أريد الإدعاء بأن ذلك قد ابهجني. ولكن كيف بإمكاني ألاّ اصفح عنك، يا إيما. لقد كنت تعتقدين انني خنت عهدك مع امرأة أخرى، وانني تجاهلت رسالتك الرائعة التي تطلب مني العودة وان ننسى كل ما مضى، وانني لم اقم بأي محاولة للاتصال بك... لا اظنك قد تلقيت باقة الورود التي كنت ارسلتها اليك في أول ذكرى سنوية لزواجنا؟»

فهزت رأسها وقد بان العذاب في ملامحها. كلا، فقد كانت في ذلك الحين في منزل أبيها. ولا شك في انه منع وصول تلك الورود إليها.

فقال ريتشارد: «انه أبوك وراء ذلك، أيضاً، بالطبع، بينما كنت أنت، في سنواتك العشرين، مجروحة الفؤاد حائرة، وجاهزة للموافقة على الرجل الذي اختاره أبوك لك.»

صدرت عن إيما صرخة ممزقة: «آه، يا ريتشارد. لم اندم

على شيء قط في حياتي، كما ندمت لذلك، ولكنني كنت في غاية التعاسة. لقد حاولت اقناع نفسي بأنني سوف احب نايجل. ولكنني كنت في اعماقي اعلم ان هذا ليس صحيحاً، كان يبدو عليك انك لم تعد تحبني، فحاولت ان أرد لك الضربة...»

«مع انني لم اتوقف عن حبك قط. انني متزوج منك يا إيما منذ تسع سنوات. متزوج قانونياً وقلبياً. ولطالما رجوتك ان تعودي إليّ. ولكنك لم تفعلي. وأخيراً حاولت ان أمحوك من قلبي بالتعرف إلى غيرك. ولكنني لم انجح في ذلك. لم استطع أبداً أن انساك.»

اعترفت قائلة بصوت خافت: «وأنا أيضاً لم استطع ان انساك. بعد ان تركت نايجل، كرست نفسي لعملي فقط. لم يكن في حياتي شيء آخر.»

فسألها: «بعد أن تركت نايجل؟»

«نعم.»

«ولماذا تركته؟»

قالت ببساطة: «لأنه لم يكن أنت.»

«وماذا عن أولئك الرجال الذين اقترن اسمهم باسمك...»

فقاطعته: «لم يكن هنالك رجال آخرون. انك تعرف الصحافيين، يا ريتشارد. ان بعضهم لا يتردد في خلط الوقائع لينتج قصة مشوقة.»

فانتفض قائلاً: «اعلم هذا. فإن مآثري أنا أيضاً مع النساء لم تكن ما كانوا يذكرونه، وفي النهاية، ساورني انا نفسي الاشمئزاز من ذلك النوع من الحياة. كان كل ما أريده هو ان تعودي إليّ. ولكنك لم تفعلي هذا قط. وإذا بي اسمع،

ذات يوم، ان شركتك على وشك الافلاس. ورأيت في ذلك فرصة لاعادتك إليّ. وهكذا تبعتك إلى مدينة بالي، هنا، وقدمت اليك ذلك العرض.»

فقالت بحيرة: «ولكن إذا كنت ما تزال تحبني، فلماذا لم تطلب مني العودة اليك بشكل حقيقي؟»

تخلل شعره باصابعه وهو يتنهد قائلاً: «انها الكبرياء الجريحة، انه ظمأ الرجولة إلى الانتقام. لا تنسي وجهة نظري في ما كان حدث بيننا، يا إيما. فحسب ما كنت اعرفه، تركتني لا لشيء إلا لأنني شتمت اباك الغالي، وإضافة إلى هذا الألم الذي سببته لي بعملك ذاك، اضفت إليه إهانة كرامتي بخروجك مع نايجل على الفور تقريباً. حتى بعد ان مات أبوك، لم يهدأ غضبي قط، شعرت برغبة في أن أجرك من شعرك لأرغمك على الاعتراف بأنني أنا الرجل الأفضل.»

لاحت ابتسامة على وجه إيما وهي تقول: «لقد فهمت.»

حدق إليها قائلاً: «إذن، فأنا أريدك ان تقولي انك ما زلت تحبينني.»

فقالت محتجة: «ولكنني فعلت، كان ذلك في باناس، ولكنك قذفت بكلماتي تلك في وجهي.»

تنهد قائلاً: «اعلم ذلك. كان ذلك لأنك اسرعت بقولها، فلم اصدق انها حقيقية. لم استطع قط ان اصدق ذلك، ظننتك تقومين بلعبة ما، كنت احترق من الغيرة وشعرت بأن خطتي التي كنت وضعتها بكل عناية، تنهار من اساسها.»

فرددت كلماته مفكرة: «(خطتك التي وضعتها بكل عناية)؟ ماذا كانت خطتك يا ريتشارد؟ هل كنت تنوي حقاً

ان تمكث معي ثلاثة أشهر فقط لكي تحقق انتقامك، ثم تتركني؟»

فأطلق ضحكة جافة وهو يعترف قائلاً: «لم اعد اعرف شيئاً. من المؤكد ان هذا ما كنت حدثت به نفسي. ولكنني سرعان ما أدركت ان ليس باستطاعتي القيام بذلك، ذلك انني بقيت بعيداً عنك ثماني سنوات، ولكن منذ أول يوم امضيته معك، إذا بي اعود من جديد من حيث ابتدأت... حبي لك... حاجتي إليك، ثم كراهيتي لك! حبي للأرض التي تسيرين عليها، لم استطع مواجهة هذا كله.»

«اهذا الذي جعلك تكرهني بذلك الشكل؟»

أجاب بصوت خشن: «نعم.»

«لماذا إذن جعلتني اظنك على علاقة باماندا؟»

«نعم، مرة أخرى رأيت في ذلك طريقة اخفي بها مشاعري عنك. ولكنني لم اكن أدرك انها كانت معجبة بي إلى هذا الحد. ومع مرور الوقت، أدركت ان ماكنت اقوم به كان أمراً سخيفاً، لم اعد استطيع انكار حبي لك وأنني اريدك ان تعودي اليّ، ولكن كرامتي لم تسمح لي بأن اصارحك بذلك. كان لساني ينعقد دوماً كلما هممت بذلك.»

«ولكن في ذلك اليوم الذي دخلت أنا فيه المنزل ووجدت اماندا معك، لقد قالت لك انها تحبك فلماذا أنت لم...»

فقاطعها متضايقاً: «أردت ان اتصرف بشهامة نحوكما، انتما الاثنتين، لقد بدا عليها الكدر حقيقة فحاولت تهدئتها والتخلص منها لكي يكون بإمكاني التحدث معك. ولكنك لم تستطيعي الاستماع إليّ. حتى عندما صرخت من خلف باب غرفتك انني أحبك.»

فبدت على وجهها ابتسامة اعتراف بالذنب، وهي تقول: «لم استطع ان اسمعك. فقد ادرت شريط موسيقى فاغنر إلى أعلى ما يمكن.»

اقسم ريتشارد قائلاً: «لن استمع إلى ذلك الشريط أبداً بعد الآن.»

فقالت: «انك طبعاً لن تستمع إليه، فقد ألقيت به في القمامة.»

فزمجر ريتشارد وقد تحول اهتمامه بشكل خاطف: «فعلت ماذا؟ ألقيت بشريط موسيقى فاغنر في القمامة؟»

وسرى في كيانها شعور بالبهجة والارتياح ما جعلها تنفجر ضاحكة وهي تصرخ بتحبب: «آه، وما أهمية ذلك؟ ما أهمية أي من الأشياء التافهة بعد الآن؟ بعد أن عدنا إلى بعضنا وسوينا كل مشكلاتنا؟»

انتهز هذه الفرصة التي سنحت له، ليقول وهو يحدق فيها من خلال عينين نصف مغمضتين: «معك حق، ليس هناك سوى شيء واحد يهمنا الآن.»

فسألته: «وما هو؟»

«هو انك زوجتي وانني أحبك الآن حتى آخر العمر. هل لك بأن تعودي إليّ يا إيما؟ وبشكل دائم؟»

أجابت بحرارة: «طبعاً سأعود.»

وفجأة تبدد كل ما كان بينهما من توتر، متحولاً إلى فرح وبهجة غامرة صاخبة ثم قال: «انك لن تتركيني أبداً مرة أخرى.»

قالت: «وهل لي رأي في هذا؟»

أجاب برزانة مصطنعة: «كلا، عليك من فضلك ان تتذكري

مركزك، يا امرأة، فهذا الزواج ليس ديموقراطية، انه استبداد.»

فقالت بمثل لهجته: «فهمت، والمستبد سيستعمل معي طريقته الشريرة، أليس كذلك؟»

قال: «بالضبط. لشد ما اشعر بالزهو لأنك حامل بطفلي، يكاد هذا يكون أحسن مابيننا. انما ليس تماماً، ان أحسن شيء هو عودتنا إلى بعضنا. وعودتنا مرة أخرى، زوجاً وزوجة. انني أحبك يا إيما، أحبك، أحبك.»

فهمست: «وأنا أحبك أيضاً، يا ريتشارد.»

بعد ذلك بساعات، بعد ان تناولا الطعام وارتاحا قليلاً، أعلن بأنهما سيخرجان.

فقالت شاكية: «لا أريد هذا العناء. أريد ان أبقى هنا شاعرة بالبهجة. على كل حال، إلى أين سنخرج؟»

«إلى بركان بينيلوكان.»

فاسكتها ذلك. بينيلوكان، حيث كانا أقسما، أثناء شهر عسلهما، على حب لا ينتهي، حتى ولو لم يكن ريتشارد يتذكر ما كان قاله لها، فهو على الأقل يعلم أنه مكان خاص لهما، نعم، عليهما ان يعودا لزيارة ذلك المكان.

كان قد انهمر مطر استوائي متأخر، ما جعل الأدغال، على طول الطريق، تتألق بألوف قطرات المطر الماسية العاكسة لألوان قوس قزح، وعلى جوانب الطرق الموحلة، كانت مياه برك تكونت حديثاً من ماء المطر، كانت تعكس زرقة السماء، وعندما انزلت إيما زجاج نافذة السيارة، عبقت السيارة بشذا الزهور التي حملها النسيم إليها. ثم ابتدآ بصعود الجبال حيث اخذ الهواء في البرودة، وأخيراً وصلا إلى المدخل

الحجري المغطى بالطحالب لتظهر منطقة الجبال منبسطة امامهما في منظر عام شامل من الزرقة والزمرد الأخضر. فأوقف ريتشارد السيارة ثم ساعدها على الخروج منها. لقد وصلا إلى بينيلوكان.

كان المنظر من هناك من أروع ما تشاهده العين، وجبل باتور يرتفع من الخلف والبحيرة تنبسط كالمرآة بين التلال الخضراء. وبينما وقفت إيما تحدّق إليها أسفل، شعرت بحنين خاطف إلى تلك اللحظة في شهر عسلهما، التي شهدت الكلمات التي كان ريتشارد قالها لها حينذاك.

وبحركة مفاجئة، سحبها ريتشارد إليه، ونظر في اعماق عينيها وقد بدا على وجهه التصميم والتفكير العميق، فنظرت هي إليه مستفسرة، فقال بهدوء: «إيما فيلدينغ، أقسم بأن أبقى أحبك حتى آخر يوم من عمري.»

فتدفق في كيانها سيل من البهجة لا يوصف، شعرت معه انها ستطير بين السحاب، وقالت: «ريتشارد، أمازلت تذكر كلماتك هذه؟»

تمتم يقول: «وهل بإمكاني ان انساها قط؟»

تمت